المملكة الأولى
دمشق

obeikandl.com

obeikandl.com

دمشـق

الممالك الشامية : أكبر مدنها دمشق، والشام، حدُّها من الفرات إلى العريش طولا، ومن جبل طيء إلى بحر الروم عرضًا، قاله فى آثار العباد[١].

وقيل : قطر الشام من العريش إلى بالس[٢] : وقيل : إلى الفرات.

وقال السمعانى : هى بلاد ما بين الجزيرة والغور إلى الساحل[٣]. ويجوز التذكير والتأنيث والهمز، وتركه، وأما شأم، بفتح الهمزة فيأباه أكثرهم فى النسب، قاله فى المحاسن الشامية، وقاله ابن حبيب الحلبى فى كتابه تشنيف المسامع فى وصف الجامع، فتذكر .

وأما دمشق فهى : فى دجنة[٤] الدنيا كاليمامة، وفى البلاد كالطاوس أو طوق الحمامة، وفى دائرة الأقطار كالنقطة المعلمة، وفى جيوش الامعان كالملك، الذى ينطق بالحكمة، وفى قلادة الأقاليم كالواسطة، وفى سماء الممالك كالشمس التى بدت أشعتها فى الوجود باسطة، وهى المعدودة من جملة مدائن الجنة.

قد اشتملت على الماهرين الأهلة من أرباب الكتاب والسنة، وهى المعروفة بإرم ذات العماد، والموصوفة بالتى لم يُخلق مثلها فى البلاد.

ووصفها الدمامينى[٥] المالكى الإسكندرى، فقال : فتأملها، فإذا هى ربوة ذات قرار ومعين، وبلدة تبعث محاسنها الذكر على أحسن وصف وتعيين، وما أحسن جامعها الشارق فيها وفى سواها، والأنهار التى إذا ذكرت، قيل : ما أجراها، وإذا سمع الحديث الحضب، قيل: ما أرواها، وما أقول إلاّ منزهات مصر[٦] عارية، وهذه ذات الكسوة، وإن النيل[٧] ما اخترق من الأمور إلا من

---

(١) انظر : آثار العباد، للقزوينى ص١٩٥ .

(٢) بالس : بلدة بالشام بين حلب، والرقة. انظر معجم البلدان (٣٩٠/١) ومعجم ما استعجم (٢٢٢) .

(٣) انظر : الأنساب للسمعانى (٣٨٦/٣) .

(٤) الدُجنة : الظلمة. انظر: لسان العرب، مادة [دجن] .

(٥) الدَّمَامينى، هو : محمد بن أبى بكر بن عمر بن أبى بكر بن محمد القرشى المخزومى، الإسكندرى، المالكى، بدر الدين، أديب، ناثر، نحوى، عروضى، فقيه، له شرح مغنى اللبيب، توفى سنة (٨٢٧هـ) انظر : شذرات الذهب (١٨١/٧) معجم المؤلفين (١٧٠/٣).

(٦) مصر : الدولة والقطر المعروف، جاء بها للمقارنة ولتفضيل الشام عليها، لأنها (مصر) كان يضرب بها المثل فى الجمال ومتنزهاتها.

(٧) النيل: نهر مصر، أطول أنهار العالم وأعظمها، غنى عن التعريف.

حيث لم يعقه الدهر بالصعود إلى تلك الربوة، ولا ناله الكسر إلاّ لتألمه بالانقطاع عن الوصول إلى شقوق أنهارها، ولا أظنه أجمر خجلاً إلاّ بصفاء أنهارها، فلو رأى العاشق جبهتيها لسلمى بمصر معشوقه، ونسى ظهور جوانبه المنحنية بقامات غصونها الممشوقة، فحق لمصر لا تجرى حديث المفاخرة فى وجهها، وأن يبقى أثر المنازعة قبل أن تصاب من هذه البلدة بسهمها، ولطال ما انتهرت لجنكها[1] الباطن على السماع، وترى كل نهر أذاب عقد الجليد مما انعقد على حلاوة يكن الإجماع.

وما أحسن قول القيراطى[2] :

مَافِيْـــهِ إلاَّ جَوْسَـــق أوْ رَوْضَـــة ... أو جـــــدول أو ربـــــــربُ
وإذ إنكســـر مـــاؤه أبصرتُـــه ... فـــى الحـــالِ بيـــن رياضـــه يتشـــعبُ
وشـذت علـى العيـدانِ ورق أطربـت ... بغنائِهـا مـا غـاب عنـهِ المطـربُ
فـالورقُ تشـذو والنسـيم مشـبب ... والنهـرُ يسـقى والحدائـق تشـربُ
وضياعُهـا ضـاعَ النسـيم بهـا فكـمْ ... أضحـى لـه مـنْ بيننـا مُتطلـبُ
ولكـمْ طربـت علـى السـماءِ لجنْكِهـا ... وغـدا بربْوتُهـا اللسـانُ يشـببُ

ولبعضهم :

نـزه الطـرفَ فـى دمشـق ففيهـا ... كـل ماتشـتهى ومـا تختـارُ
هـى فـى الأرض جنـة فتـأمل ... كيـف تجـرى مـن تَحتهـا الأنهـارُ

وللحافظ أحمد المقرئ المؤرخ المحدث[3] :

الشـامُ جنَّـة لا تقـاسُ بحـد ... كأنهـا مُعْجـزة مقرونـة بـالتحدى

---

(١) الجنك : آلة طرب فارسية. انظر: القاموس المحيط، مادة [جنك].

(٢) القيراطى، هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر بن مظفر بن نجم بن شادى بن هلال، برهان الدين، أبو إسحاق، من الشعراء الأدباء، من مصنفاته: ديوان شعر، اسمه: مطلع النيرين، أدب الوشاح، توفى سنة (٧٨١هـ). انظر :الدرر الكامنة (٣١/١)، شذرات الذهب (٢٦٩/٦) .

(٣) أحمد المقرئ، هو: ابن اسماعيل بن عبد الله بن محمد بن حامد البغدادى، شمس الدين، فقيه، شاعر، عالم بالعربية، له كتاب فى التاريخ، عاش فى القرن الثامن الهجرى. انظر ترجمته : الدرر الكامنة (١٠٦/١)، معجم المؤلفين (١٠٤/١) .

ومن قول ابن الساعاتى[1] :

لـــولا صـــدودكِ يـــا أُمَلَّحـــةُ ... مـــابتُ أنـــدبُ عهـــدَ رامـــةِ

ابكـــــى ليـــــالى غبطـــــةٍ ... كـــانت لخـــدِ الشـــام شـــامةِ

فتأمل كيف أطلق الشام على لياليه التى مرت من بين الليالى كلها، واستطابها من بين الليالى كلها.

قيل[2]: بناها العاذر، غلام إبراهيم عليه السلام، قاله : وهب، وكان خادمًا لنمرود، فوهبه له.

وفى عيون التواريخ[3] : بناها غلام الإسكندر، واسمه: دمشق لما نزل عقبة دمر حين فرغ من السد وأهل خراسان وراء النهر وغيضه؛ فأمر بالعمارة ونزل الأمين موضع العمارة، والإسكندر فى موضع يقال له: الآرب[4] بلدًا، وهى من الغيظة الأرز، على أربعة أميال، ثم أمره بقطع الشجر والأرمان، الكائن حول النهر فى الوادى، وأمره بالبناء، وسميت باسم غلامه، وعمل لها ثلاثة أبواب: البريد، وجيرون، والفراديس، وخارجها : المرعى، والزروع، ثم سكن بها دمشق إلى أن مات فيها، انتهى. من عيون التواريخ[5].

قال الجوهرى[6]: دمشق القديمة، وتُجْمع على دماشق، وقيل: بناها اليونان، وقسموا الأنهار، وسلكوا الماء إلى الدور، وبنوا المعبد، وقبلته كانت جهة الشمال

---

(١) ابن الساعاتى، هو: أحمد بن على بن ثعلب بن أبى الضياء الحنفى، البعلبكى، البغدادى، فقيه، أصولى من الأدباء، له الدر المنضود فى الرد على فيلسوف اليهود. توفى سنة (٦٩٤هـ) انظر: كشف الظنون (٢٣٥، ٧٣٤، ١٥٩٩) معجم المؤلفين (١٩٩/١) .

(٢) انظر : تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/١).

(٣) صاحب عيون التواريخ، هو : محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن، الكتبى، الدارانى، الدمشقى، من علماء التاريخ، والأدباء، اشتغل بتجارة الكتب، من مصنفاته: فوات الوفيات، توفى سنة (٧٦٤هـ) انظر: الدرر الكامنة (٤٥١/٣) شذرات الذهب (٢٠٣/٦).

(٤) الآرب : من قرى دمشق. انظر: معجم البلدان (٥٠٤/٥) وتاريخ دمشق (١٦/١) .

(٥) انظر: عيون التواريخ (١٢٢/١)، تاريخ دمشق (١٥/١).

(٦) الجوهرى، هو: إسماعيل بن حماد، الفارابى، أبو نصر، أحد أعلام اللغة، أديب، من مؤلفاته: الصحاح فى اللغة، المقدمة فى النحو، توفى سنة (٣٩٣هـ) .انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١١) معجم الأدباء (١٥١/٦).

جهة القطب، وبابه؛ وهو خلف محراب المقصورة إلى الآن، وهو حسن، مبنى بالحجارة المنحوتة، وعن يمينه وشماله بابان صغيران بالنسبة إليه[1].

وقيل : عاد، وقيل : وولده معد، وقيل : له ولدان : جيرون، والآخر : يزيد، وبنى لهما القصرين المشهورين؛ الأول : غربى الجامع، والثانى : شرقيه، ولا مانع من تكرار التجديد، أو وقوع الأحداث شيئًا بعد شيء .

وقيل : بنته الجن لسليمان عليه السلام.

(١) انظر: الصحاح، مادة [دمشق] .

obeikandl.com

فصل

أبواب دمشق

وأما أبوابها : فسبعة :

الأول : الصغير. وهو الذى نزل به يزيد بن أبـى سفيان[1] حين حصارها، وهو القبلى.

الثانى : الجابية.

الثالث : كيسان؛ وهو قبلها من شرقيه، وينسب إلى كيسان[2] مولى معاوية، لنزوله عليه، والآن مسدود.

الرابع : باب شرقى؛ لأنه شرقى الباب، وعليه نزل خالد بن الوليد[3]، وتوماء[4] اسم لصاحبه.

الخامس : الجنسق، منسوب لصاحبه.

ويليه السادس : الفراديس محلة كانت خارجة عنه، **والفراديس** : البستان.

ويليه السابع : -أعنى باب الجابية- منسوب إلى قريه الجابيـة، وكانت فى الجاهلية مدينة عظيمة.

وباب الجابية : كان ثلاثة أبواب : صغيران، وكبير، والشرقى مقابله كذلك.

وكان للثلاثة أبواب: ثلاثة أسواق من شرقى الجابية : **الأوسط للمشاة.** والواحدة : لمن يغرب بدابته، والآخر : لمن يغرب حتى لا يلتقى راكبان.

---

(١) يزيد بن أبى سفيان، هو: ابن معاوية بن أبى سفيان، الأموى، ثانى خلفاء بنى أمية، توفى سنة (٦٤هـ) انظر: تاريخ الطبرى، حوادث سنة(٦٤هـ)، تاريخ الخميس (٣٠٠/٢).

(٢) كيسان مولى معاوية، يروى العلم عن معاوية بن أبى سفيان. انظر: تاريخ دمشق (٢٧٩/٥٠)، التاريخ الكبير للبخارى (٣٣٤/٧).

(٣) خالد بن الوليد بن المغيرة، المخزومى، سيف الله، الفاتح، الصحابى، أسلم قبل الفتح، القائد الذى لم يهزم، صاحب الفتوحات. انظر: الإصابة (٤١٣/١) صفوة الصفوة (٢٦٨/١) .

(٤) انظر: معجم البلدان (٣٦٤/١) .

والسلطان نور الدين[1]، فتح بابًا آخر، يسمى : باب السلام، وآخر يقال لـه : باب الفرج.

قال ابن عساكر : وكان قربه بابٌ يسمى : باب العمارة، فتح عند عمارة القلعة، وأثرم باق إلى يومنا هذا.

والأبواب فى هذا التاريخ[2] : باب الفرج، وباب السلام، وباب النصر، وباب توماء، وباب الجابية، وباب الفراديس، وباب الجنسق، وباب كيسان، وهما مردومان.

وأول من بنى القلعة : أفنس رادن.

وأحدث الأرواام : باب الجديد، بالجيم، والعامة تقول : باب الحديد بالحاء، ويليه باب السر، وهو الغربى وهو مسدود باقٍ إلى الآن، وسمى باب السر؛ لأنه اصطلح فى دولة ابن قلاوون[3] أن من يلى نيابة الشام يصلى ركعتين مستقبل القبلة، بحيث يبقى الباب عن يساره، وتقف أجناد القلعة، وأرباب الوظائف على منازلهم، متحملين بالسلاح إلى الفراغ من صلاته ودعائه؛ فإن أريد به شرٌ قبض عليه، ودخلوا به من ذلك الباب، ويعلمون الخبر بينه وبين أعوانه؛ فإنَّ الجسر بلوالب[4]، وإن أريد به خيرٌ، طلع وركب فى عترته[5] ودولته، إلى أن يدخل إلى السرايا المسماة بدار الملك، وكان أنشأها السلطان نور الدين الشهيد، وتسمى بدار العدل.

---

(١) نور الدين، هو : محمود بن زنكى، عماد الدين، أبو القاسم، الملقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو من أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، بنى المدارس، والخانات فى الطريق، والخوانق للصوفية، حارب الصليبيين، وبنى الحصون والقلاع، وكان مكرمًا للعلماء ينهض للقائهم ويؤنسهم ولا يرد لهم قولاً، وكان يتمنى أن يموت شهيدًا، فمات بعلة (الخوانيق) فى قلعة دمشق سنة (٥٦٩هـ) فقيل له: الشهيد. انظر: وفيات الأعيان (٧٨/٢) النجوم الزاهرة (٧١/٦) تاريخ ابن خلدون (٢٥٣/٥).

(٢) انظر: تاريخ دمشق (١٦/١) .

(٣) ابن قلاوون، هو : محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحى، أبو الفتح من كبار ملوك المماليك، كانت إقامته فى طفولته بدمشق وولى سلطنة مصر والشام، سنة (٦٩٣هـ)، وخلع منها لحداثة سنه، ثم أعيد إلى سلطنة مصر سنة (٦٩٨هـ) توفى سنة (٧٤١هـ) انظر: النجوم الزاهرة (٤١/٨) والدرر الكامنة (١٤٤/٤) فوات الوفيات (٢٦٣/٢) .

(٤) اللولب : آلة من خشب، أو حديد، ذات محور. انظر : القاموس المحيط، مادة [لوب] .

(٥) العترة : أهل الإنسان. انظر: القاموس المحيط، مادة [عتر].

وقيل : يسمى باب السر؛ لأنه كان يخرج منه ويدخل إليه سرًا على جسر من خشب، وتحته الخندق الدائر بالقلعة، وهو مقدار معلوم، وفيه تخرج البعض عمقه مقدار خمسين ذراعًا، والآن به أنواع الأشجار، والفواكه من الزروع لا يكن بدمشق أحسن منها، ولا أكثر منها، ولها نوع سبق، وهو غير خندق المدينة.

وأما باب النصر : ففتحه الملك الناصر أيوب[١].

وهذه الخمسة الأبواب الحادثة فيما بين الجابية والفراديس، إلا باب السلامة، والفرج، فهما لنور الدين.

وفى الصور أبواب صغار تفتح أيام الحاجة، وغالب هذه الأبواب على كل واحد منارة، لنور الدين، على مساجد، وجعل عند كل باب باشورة، كأسواق بها حوانيت مملوءة بالبضائع، فإذا تحصنت المدينة، وقفلت، تستغنى عن كل صائح لما عندهم.

وبنى معاوية[٢] ﷺ دار الإمارة، وهى قبلى الجامع، وسماها : الخضراء؛ أى القبة الخضراء، والدار الخضراء، وسكنها معاويه أربعين سنة.

وبالقلعة المحروسة : ضريح أبى الدرداء[٣] ﷺ، وبها جامع، وخطبة، ومنارة، من بناء الشهيد، وبها حمام، وطاحون، وحوانيت، وكان بها دار الضرب[٤]، وبطل بعد الألف، والدور، والحواصل، وبها يمر النهر المسمى بعقرباء[٥]، وبها آبار، وبها الطارمة[٦] ليس على وجه الأرض أحسن منها،

---

(١) الملك الناصر أيوب، هو: يوسف بن أيوب بن شاذى، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبى، من أشهر ملوك الإسلام، قاهر الصليبيين، صاحب معركة حطين، توفى سنة (٥٨٩هـ) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢٠/٨).

(٢) معاوية، هو : ابن أبى سفيان، صخر بن حرب بن أمية، كاتب وحى رسول الله ﷺ، أمير المؤمنين، مؤسس الخلافة الأموية، توفى سنة (٦٠هـ) انظر: الإصابة (١١٩/٦).

(٣) أبو الدرداء، هو: عويمر بن قيس بن زيد، الصحابى، حكيم الأمة، وسيد القراء بدمشق، توفى سنة (٣٢هـ) انظر: الإصابة (١٠٢/٧) .

(٤) دار الضرب : المكان الذى يصنع فيه الدراهم، انظر : القاموس المحيط، مادة [ضرب] .

(٥) انظر: معجم البلدان (١٥٣/٤).

(٦) الطارمة : بيت من خشب، كالقبة، انظر : القاموس المحيط، مادة [طرم] ..

كأنها أُفرغت بقالب من شمع، وهى شامى روس الحمال، ولعله ذات القباب، والآن خرب منها، وهى على قدر الثلثين من طولها، قاله ابن المزلق[1].

ويقال لها : السبع البارك، والسبب : أن تيمورلنك[2] عجز أن ينقب تحتها، وقطع الأشجار، وعلقها بالنقب حتى انتهى، فطلق النار فيما تحتها من الأخشاب، وظن أنها تتفسخ بذلك، وتسقط شذر مذر، فيبلغ مراده مِنْ أخذ القلعة، فلما عملت النار فيما تحتها، ركت[3] بصوت أزعج الموجودين ومن معهم، فسموها: السبع البارك، وعلى ذلك العمارية، عمارة سابقة أكلف من الموجودة، وأصنع ، والله اعلم.

وبها البانياس[4]؛ للاستعمال والشرب، والآخر يخرج بالأوساخ.

وفيها : مصانع وأبار؛ للأمان من الحصار، وهو يصل إلى الخرار[5]، ويُستقَى منه القصب[6]؛ وهو أبيض، أملس كالرماح، مجوف لا عقد فيه، تصب الماء من رأس الواحد يخرج من أسفلها، وقشره يعمل منه الخيوط والأحبال، وجرمه يقطع فى يوم مخصوص بأدوات فى أطرافه لإيقاد النار، ويشعل به المصابيح؛ لأنه سريع الاشتعال، وما أحسن ما شبه بالبنفسج به أبو العتاهيه بقوله[7] :

---

(١) ابن المزلق، هو عبد الله بن محمد بن أحمد، تقى الدين البدرى، المصرى، الدمشقى، أبو البقاء، عالم بالتاريخ والأدب، من مصنفاته: نزهة الأنام فى محاسن الشام، المطالع البدرية فى المنازل القديمة، توفى سنة (٨٩٤هـ). انظر: كشف الظنون (١/١٩٤١)، معجم المؤلفين (٢/٢٧٤).

(٢) تيمور لنك، هو تيمور الأعرج، ملك المغول، حفيد جنكيز خان، اجتاح العراق وسورية، وفتح دمشق وحلب، خرب بغداد، اتخذ (سمرقند) عاصمة له. انظر: عجائب المقدور بأخبار تيمور، لابن عرب شاه.

(٣) ركت : طرحت بعضه على بعض، انظر : القاموس المحيط، مادة [رك] .

(٤) بانياس : نبع بانياس أحد روافد نهر الأردن. انظر: معجم البلدان (١/٣٩٣).

(٥) الخرار: المكان فيه أخاديد وماء. انظر: القاموس المحيط مادة [خرر].

(٦) القصب: هو قصب المكانس؛ نوع من فصيلة النجيليات، منتشر على ضفاف المستنقعات، ومنه الصلب، الذى يصنع منه المزامير، وتسقف به البيوت.

(٧) أبو العتاهية، هو: إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان، العنزى، أبو إسحاق، شاعر الشعراء، وكبير الأدباء، لُقب بأبى العتاهية؛ لاضطراب فيه، توفى سنة (٢١١هـ). انظر: سير الأعلام (١٠/١٩٥).

ولازورد تزهـــــى بزرقتهـــــا بين الرياض على حمر اليواقيت[1]

كأنهـا فـوق قامـات ضعفـنَ بهـا أوائـل النـار فـى لظـى وكـبريت

ويؤثر النار بما لقيت بسرعة، وهو يقوم مقام القاع، والمطل، إلا أنـه أسرع فى الاشتعال. كما أن الشيح بالمهملة أحسن من الحلفا، يعرفه بالتركى، وأظنه من خواص دمشق .

ضرب النوبة :

ومن محاسن دمشق : ضرب النوبة[2]، آخر الليل، وبعد صلاة العشاء، وبعد صلاة العصر، وذلك باقٍ إلى الآن، ونوبة آخر الليل؛ منسوبه لخاتون الملكة أم السلطان الملك الظاهر بيبرس[3]؛ فإنه كان لها قيام فى آخر الليل، فنامت بعض الليالى عن تهجدها، فأصبحت وبها غيظ، فسأل الملك عنها، وعن شأنها فأمر النوبة كل ليلة تضرب آخر الليل بأمرها، ولسائر المتهجدين والصائمين.

وكانت قديمًا الطبول تضرب على أبواب المدينة، وأبواب الأمراء، فبقى إلى بعد الألف.

ومن محاسنها المتنزهة : الجبهة[4] **: وهى أرض مربعة قدر فدانين، عليها شقائق تظلها من غير طين بين شجر الصفصاف، والحور، والجوز، وكل**

---

(١) اللازورد : معدن يتخذ للحلى، وأجوده الأزرق منه، انظر : القاموس المحيط، مادة [لزو] .

(٢) ضرب النوبة: هو وقت معلوم للناس ينبه عليه، بإحداث صوت عالٍ، من خلال آلة نفخ، أو ضرب على دفٍ كبير، أو ما شابه ذلك.

(٣) الظاهر بيبرس، هو: العلائى، البندقدارى، الصالحى، ركن الدين، الملك الظاهر، صاحب الفتوحات والأخبار، والآثار، كان مملوكًا لعلاء الدين، أيدكين، البندقدار، ثم للملك الصالح، نجم الدين أيوب، ولم تزل همته تصعد، ونجمه فى ارتفاع، حتى قاتل مع الملك المظفر قطز، ضد التتار ، وتولى السلطنة من بعد أثر وشاية أدت إلى قتله الملك قطز، وكان حسن السيرة، توفى سنة (٦٧٦هـ) بدمشق. انظر: النجوم الزاهرة (٩٤/٧)، والسلوك (٤٣٦/١) وسير أعلام النبلاء (٧٩/٢) .

(٤) انظر : معجم البلدان (١٢٦/٢) .

منوس حصة يحتاط جدول الماء من أربع جهاته مع البركة، والبحيرات، والنوافر، وهى على جنب نهر برديا[١] وبه النواعير، وبه الحوانيت للشراكية[٢] والطباخين، والحزارية، والخوامرية، والأقسماوية، والفواكهية.

وبها : مسجد، ومدرستان، وخان، ومقاصفية[٣] واقفة فى خدمة الناس، وعندهم اللحف[٤] والأوعية والطناجر[٥]، والفرش، والمخاد، لمن يمكث أو يبات.

وفيه يقول الحموى ابن حجة[٦] :

لما مَلأ الجبهةَ بالأنوارسية ... لمناه فى ذاك من خوفِ دمٍ عارِ
فقالَ انصرِفُوا عنّى ليس تروا ... بأنما الجبهةُ منزلِ الأقمارِ

وفيها يقول أبو سعيد[٧]، صاحب المرقص من المطربة : وقد رآها عند شمس الأصيل قبيل المغرب :

إن للجبهة فى قلبى هوى ... أليوم الجميل
يرقص الماء بها من طرب ... ويميل الغصن للظل الظليل
وتودُ الشمس لو قامت بها ... فلذا تصفو أوقات الأصيل

---

(١) برديا أو (بردى) : نهر بدمشق، انظر : معجم البلدان (٤٤٩/١) .

(٢) الشراكية : الصيادون، يصنعون الشرك للطير. انظر : القاموس المحيط، مادة [شرك].

(٣) المقاصف، مفردها مقصف: محل الأكل والشرب واللهو. انظر: القاموس المحيط، مادة [قصف].

(٤) اللحف: ما يلتحف به الإنسان عند النوم. انظر: القاموس المحيط، مادة [لحف].

(٥) الطناجر، مفردها طنجر: الإناء الممتلىء. انظر: اللسان، مادة [طنجر].

(٦) ابن حجة الحموى، هو: أبو بكر بن على بن عبد الله التقى، الحنفى، ولد ونشأ بحماة، من الأدباء والشعراء، من آثاره: ثمرات الأوراق، توفى سنة (٨٣٧هـ). انظر: معجم المؤلفين (٤٦٥/٢)، كشف الظنون (١٦٦/١).

(٧) أبو سعيد، هو فرح بن قاسم بن أحمد بن لب الثعلبى، الغرناطى المالكى الأندلسى، عالم بالعربية، من الفقهاء، اشتغل بالتفسير، وعلم الأصول، توفى سنة (٧٨٢هـ) انظر : الديباج المذهب لابن فرحون ص٢٢٠ شذرات الذهب (٢٨٠/٦) .

ولأبى سعيد الغرناطى قال[1] :

خرجت إلى ظاهر دمشق للمنتزة المعروف بالجبة[2] فقلت مخاطبًا نور الدين الأسودى[3] :

مـــولاىَ نـــور الديـــن أوْحشـــتَنى	مِـنْ دَوحـــةِ الجبهـــة حيـــثُ النعيـــمِ
والغصنُ قد أقلـقَ شـوقًا إلـى لقيـاى	لقيـــاك واســـتملى حديـــثُ النســـيمِ
والـــروضَ صلَّـــى عِنْـــدَه المقعـــد	مـــــن بُعدُكـــــم والمُقيـــــمِ
والنهـــرُ فيهـــا ركضًـــا خيلـــه	مـــن أشْـــقر أو أشْـــهَب أو بهيـــمِ
أنـــا الـــذى لفـــرق دائمًـــا	فـــى كـــل وادى فـــى دمشـــقِ أهيـــمِ

ويتلو الجبهة نهران : البانياس، والقنوات المنحدر الماء إليها منهما، ومن فوق النهر حمام النزة بالربوة، وإلى جانبه مقصف لحوانيته فيها البضائع، والجسر بواسطة نهر القنوات، ويتوصل إلى زواية الحريرى المشهورة، وليس بأبدع منها، وينحدر منها إلى المنتزة المسمى: بقطية، وهو مقصف مع نهر برديا، وعليه نواعير أرضية، يحلوا دل الماء، والبرك، والبحيرات، وبه قصبة، وحوانيت يعلوها أربعة طباق، ومربط للدواب .

وعند المقاصف العبر[4]، والقحف[5]، والانطاع[6]، حتى الأطباق والملاعق لمن يأكل، وهذا مما لا يوجد ببلاد غير دمشق .

---

(١) أبو سعيد الغرناطى، هو: فرج بن قاسم بن أحمد بن لب الثعلبى، المالكى، من علماء النحو، وأديب، وشاعر، من آثاره، شرح الجمل للزجاجى، الألغاز النحوية، توفى سنة (٧٨٢هـ). انظر: الديباج، لابن فرحون ص(٢٢٠). معجم المؤلفين (٦١٧/٢).

(٢) الجبة، أو الجبهة؛ واحد. انظر: معجم البلدان (١٦٢/٢).

(٣) نور الدين الأسودى، هو: محمد بن زنكى بن أفسنقر، أبو القاسم، الملقب بالملك العادل، أعدل ملوك زمانه، ولد فى حلب وكان من المماليك، وقد ملك الشام ومصر والجزيرة، حارب الصليبيين، وطردهم من الشام، كان يتمنى أن يموت شهيدًا فمات بعلة فى صدره فى قلعة دمشق سنة (٥٦٩هـ) لذلك قيل له الشهيد. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧٠/٧).

(٤) العُبْرُ : الجماعة من الناس، انظر : لسان العرب، مادة [عبر] .

(٥) القحف : إناء من خشب. انظر : القاموس المحيط، مادة [قحف] .

(٦) الأنطاع، مفردها نطع: بساط من الجلد يفرش للطعام. انظر: القاموس المحيط، مادة [نطع].

وقال الشمس بن المزلق فى (نزهة الأنام) أيضًا : أنشدنى القاضى عز الدين الكنانى الصالحى الحنبلى فيها[1] :

ويا حُسْنَ سلسالٍ على مرجِ قطية ... إذا ما جرَى فيها نخوضُ ونلعبُ

تهددُه أغصانها برؤوسها ... فينظرُ من طرفٍ خفىٍ ويهربُ

ولابن عمارة الأندلسى رحمه الله تعالى[2] :

تهرّ يهيمُ بحسنِه من لم يهم ... ويجيدُ فيه الشعرُ من لم يشعرْ

فكأنه وكأن خضرة أرضهِ ... سيفٌ يسلُ على بساطِ أخضرْ

ومن منتزهاتها: المنتزة المسمى بالبهنسية، وهو روض يجتمع على أشجار وثمار، وينظر منه إلى مرجة جسر شواش، به مقاصير، وبيع، وشراء، ومنه إلى أرض مختصة ما بين رياض، وغياض، ويعلوها محلة النيرب، وهى من أعظم المحلات، وأنضرها.

وبها : سوق، وحمام: يقال له : حمام الزمرد بالنيرب، وقد عده الحافظ بن عبد الهادى[3] من حمامى الصالحية.

حمامات الصالحية[4] :

وقد ذكرها كلها بقوله، فقال : باب فى حمامات الصالحية، من تاريخه ومن خطه نقلت : حمام الزمرد بالنيرب : خرب وزال.

---

(١) الكنانى الصالحى، هو : أحمد بن إبراهيم بن نصر بن أبى الفتح، العسقلانى، عز الدين أبو البركات، أكثر من الجمع والتصنيف، ومنها : تنبيه الأخبار على ما قيل فى المنام من الأشعار، توفى سنة (٨٧٦هـ). انظر ترجمته : الضوء اللامع (٢٠٥/١) شذرات الذهب (٣٢١/٧) .

(٢) ابن عمارة الأندلسى، هو: محمد بن عمارة الهروى، الشلبى، المالكى، أبو بكر، أديب، شاعر، ذو الوزارتين، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٨٤٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٥٥٦/٣).

(٣) ابن عبد الهادى، هو: محمد بن أحمد بن عبد الهادى بن عبد الحميد بن قدامة المقدسى، الصالحى، المحدث، الحافظ، الفقيه، من آثاره: تنقيح التحقيق فى مسائل التعليق، فضائل الشام. توفى سنة (٧٤٤هـ). انظر: تاريخ الصالحية، لابن طولون (٤٣٢/٢) . معجم المؤلفين (١١٣/٣).

(٤) الصالحية: بلدة كبيرة يحيط بها جبل قسيون بالشام. انظر: معجم البلدان (٤٤٢/٣).

وحمام السبلية : كذلك.

وحمام مقرى : كذلك.

وحمام الزهر : نسبته إلى بانيه، وخرب وصار مكانه جنينة.

وحمام العلاء : فوق الكاس.

وحمام الركنية، والنحاس.

وحمام القاضى حمزة.

وحمام الحاجب : بناه الأمير محمد بن مبارك صاحب الحاجبين.

ومثله فى الحسن حمام الرباط : بمحلة الجسر الأبيض.

وحمام ابن العينى.

وحمام الحنفى.

وحمام العرائس.

وحمام العفيف.

وحمام المقدم.

وحمام إبراهيم الخواجا.

وحمام الجوهرة، لصيق [حمام] ابن عربى.

وبمحلة الجسر : مقصف وعمائر وقصور، وبه مقصف على نهر تورا، وحمام وبعض حوانيت؛ وهو أعدل هواءً فى دمشق وكان متهدمًا زمن السلطان سليم[1] عليه الرحمة؛ فاشتراه بمائة ذهب ماعدا حلة الماء، وضافه للمسجد الذى أنشأه.

قال : وثم حمامات فى بيوت، ففى بيت القاضى كمال الدين بن الخطيب؛ حمام.

وفى بيت الجرودى حمام.

وفى بحارة مقرئ حمام، انتهى كلامه .

---

(١) السلطان سليم الأول، من السلاطين العثمانيين، قضى على دولة المماليك فى موقعة (مرج دابق)، وفتح سورية، مصر. توفى سنة (٩٢٥هـ) انظر ترجمته : العثمانيون فى التاريخ والحضارة، محمد حرب ص٢٣ : ٣٠ .

obeikandl.com

وترك ذكر حمام الربوة، وحمام النحاس، ولعله هو حمام الركنية والله أعلم.

والآن لم يبق بالصالحية سوى خمسة :

حمام الحاجب، وحمام المقدم، وحمام العرائس، والعفيف، وعبد الباسط.

وفاته ذكر حمام الربوة، وحمام ابن سلطان بالسكة ،وحمام عند المسجد لصيق الجامع الأفرم، ولعله قبل المسجد، لصيقه قبل الجامع ،وقد انكشف لنا، وراووا : إنما بيته وعمارته.

وكان مردومًا وظهر ذلك التل عنه فى سنة سبع وأربعين ومائة وألف .

ذكر محلة النيرب[1] :

ثم إن محلة النيرب كما قال ابن مزلق : هى من أعظم المحلات، وأنضرها، وبها سويق، وحمام الزمرد، وجامع بخطبة، وبها مسكن الرؤساء والأكابر، وبها دار القاضى ابن حجر انتهى.

قلت : ويدخل منها إلى محلة الدهشة.

قلت : ولعله لم يذكر محلة الدهشة؛ لأنها من جملة النيرب.

وفى محلة الدهشة: سكن القاضى السبكى[2]، صاحب (جمع الجوامع فى الأصول) ،ومنها للربوة، ويأتى ذكرها فى القريب.

أقول : التغزل لما انتشأ موضع العمارة من الحدائق والبساتين الظليلة والفواكه الجليلة، وإلا فالعمائر لا يتغزل فيها فى العادة.

وفى النيرب، يقول بدر الدين الذهبى :

رعىَ اللهُ أرضَ النيربينِ فإننى ... قطعتُ بهِ يومًا لذيذًا من العمرِ

رآنى أنى جئتهُ متنزهًا ... فمد لاقدامى بساطًا من الزهرِ

وأوصى لأغصانِ قربى فأرسلتْ ... هدايا من الأرياح طيبة النشرِ

وأخذ منى الماءَ الفراتَ وحيثما ... سنحتْ رأيتُ الماءَ فى خدمتى يجرِي

---

(١) النيرب: قرية مشهورة بدمشق، يقال فيها: مصلى الخضر. انظر: معجم البلدان (٥/٣٨٠).

(٢) السبكى، هو: عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى، الأنصارى، أبو نصر، تاج الدين، من العلماء والفقهاء البارزين، له المؤلفات الشائعة الصيت، منها: طبقات الشافعية، شرح المنهاج. توفى سنة (٧٧١هـ). انظر: الدرر الكامنة (٢/٤٢٥) معجم المؤلفين (٢/٣٤٣).

وأجاد الوداعى بقوله[1] :

ويـــومٌ لنـــا بـــالنيربينِ رقيقـــة ... مواتيـــه خـــالٍ مـــن رقيـــبٍ يشـــينهُ
وقفنـا وسـلّمنا علـى الـدوح بكـرة ... فـردتْ علينـا بـالرؤوس غصونـهُ

وقال سيف الدين المشد وأبدع[2] :

وصبًـا صبـت مـن قاسـيون فسـكنت ... بهبوبُهـا وصبَـا الفـؤادُ البـالىَ
فـاضت ميـاه النـيربينِ عشـية ... وأتـتْ إليـكَ بليلـةِ الأذيـالَ

وللمنينى قوله من بعده[3] :

دعْ قلـبَ المحـبِ مـن يقاسـى ... كـل قلـبٍ عليـه كالسـحْر قاسـى
يـاعيونى أيـنَ الدمـوعُ فقـد ... أحـرقَ قلبـى توقـدُ الأنفـاسِ

إلى قوله :

عنـدهُ النـيربين مـن نهـرِ تُـورَا ... واخضـرار المـروجِ مـن باقياسِ

وقبله قوله :

من بنى التركِ ضيقُ العينِ وهى من صفة ... البُخـل فـإن جـاد كـان مـن العبـاس
جـذبُ القـوسِ فاكتسـتْ وجنتـاهُ ... ثـوبُ وردٍ طـرازه مـن آسِ

ومنها قوله بعد ذكر، ذكر الغوطه، وهى من منتزهات دمشق قوله :

والنسـيمُ الـذى يمـرُ علـى الغُـو ... طَـةِ ريـانُ نشـرهُ عـاطرُ الأنفـاسِ
بلـدةٌ حـلَّ بهـا الحبيـبُ فمَـرّ ... عاهَـا خصـبُ والنـاسُ فـى أغـراسِ

---

(١) الوادعى : على بن المظفر بن إبراهيم بن عمر، الإسكندرانى، أبو الحسن، علاء الدين، من الأدباء، والشعراء، ومن تصانيفه : ديوان شعر فى ثلاث مجلدات، توفى سنة (٧١٦هـ). انظر ترجمته : الدرر الكامنة (١٣٠/٣) النجوم الزاهرة (٢٣٥/٩) .

(٢) سيف الدين المشد، هو : على بن عمر بن قزل، التركمانى المعروف بالمشد، شاعر من الأمراء توفى بدمشق سنة (٦٥٦هـ). انظر ترجمته : الوافى، للصفدى (١٢٨/١٢) البداية والنهاية (١٩٧/١٣) .

(٣) المنينى، هو: أحمد بن على بن عمر بن صالح بن إدريس الدمشقى، الحنفى، شهاب الدين، أبو العباس، محدث، شاعر، من مؤلفاته : الأعلام بفضائل الشام، توفى سنة (١١٧٢هـ) انظر ترجمته : سلك الدرر (١٣٣/١) معجم المؤلفين (٢٠٧/١) .

obeikandl.com

ومما انشدنى بعضهم لبعض القراء وأجاد :

سـقى الوسْـمى سـفحُ النـيربين ... وحياهَـا الحيـا بـالواديين

ديـارات جفاهَـا الغيـثُ يومًـا ... سَـقَاها الغيـثُ دمـعَ المُقلتيـنِ

حـوَى المُـرُ فـى نارهَـا فرقـتْ ... بهـا الولـدانُ بيْـن الجنتيـنِ

فياللـه مِـنْ حَـورا رأتهـا ... وانظـرْ حسـن مهجتهـا بعيـنِ

وصـدرُ البـازِ أشـرحُ فيـه صـدْرى ... بنسـمةِ نشـرهِ فـى الخفقيـنِ

والثـمُ شَـهْدُه كالشـهدِ طعمـا ... وارتـعْ فـى ريـاض الربْوتيـنِ

فياحـادِى السـرى عـجْ بالمطايَـا ... وعـرِج نحـو مـرْج الغوطتيـنِ

اعـلْ بـاللقى قلبـا عليـلاً ... وانشـد نـاظرًا للفرقديـنِ

وانشـد كُلمـا قـد لاح يـرقْ ... سـقى الوسـميُ سـفحَ النـيربينِ

وأما منتزهاتها بين النهرين قال ابن المزلق :

وهو مبتدأ الوادى غربى البقاع يشتمل على: فرجة سماوية، بها دور، وقصور، وسويقة.

وبها : حانوت طباخ، وصاجاتى[1]، وخوامرى، وقطيفانى[2]، وفاكهانى، وقلاينى[3]، وسكردانى[4]، ونقلى[5]، وقاعة، وعدة مقاعد للخليفه ،وحمام، وقنطرة يتوصل بها إلى جزيرة لطيفة من ورائها يبقى نهر برديا ثم يصير نهرين، والمقسوم مبتدأ نهر الشيخ الصالح أرسلان -قدس الله سره-

وبها : مقصفان للبطالين فيما بين المقسمين، وقبالهما زاوية الباتى الثابتة، يقام فيها المنشد والتلاوة بالوعظ والذكر، والدواخل، ما ثم يجعل الحاضر غائبًا؛

---

(١) الصاجاتى: من الصويج، وهو الذى يخبز به، أى من يحمل الخبز وغيره على الصويج. انظر: القاموس المحيط، مادة [صوج].

(٢) قطيفانى: صانع القطائف، الحلوة المعروفة. انظر: القاموس المحيط، مادة [قطف].

(٣) القلاينى: الذى يقلى الطعام. انظر: القاموس المحيط، مادة [قلاه].

(٤) السكردان: من أنواع الحلوى، والسكردانى: صانعها، فارسية. انظر: لسان العرب، مادة [سكر].

(٥) النقلى: الحمال الذى ينقل متاع الناس وغيره من الأحمال. انظر: القاموس المحيط، مادة [نقل].

ويتوصل منه إلى شقائق النهرين المشتمل على : طباق وقاعات، وكم غرفة، وكم رواق، والجميع مطل على النهرين، وفى كل منهم ناعورة يستلذ، بأنينها ويجيب له الماء إذا سمع حنينها انتهى كلامه.

وقلتُ : وليس فى تلك الناحية من النواعير إلاّ الذى فى المولوية، وباب الهوى، وكان من منتزهات دمشق وبه الناعورة، وهى الآن للمسجد الذى هناك، وكان بهذا المحل أماكن متجرية، فأنشأ بها محمد باشا بن بيرم مدرسة، وهى الآن بينة.

ومن المنتزهات : القرينة؛ جامع يلبغا.

قال ابن المزلق : وهو يطل على الربوة زُمُرُّدًا من سائر جهاته.

قال : وعلى بحرته غرفة، ولها نوفرة، قدر قامة.

ومن منتزهات الجوامع : الجامع الزبكى بدمشق؛ فإنه مركب على بردة، وله ثمانية شبابيك، اثنان شرقيان، وأربعة قبلية، وفى الجهة الغربية الجامع.

وبقى من العمائر : المدارس الكدجانية، والمولوية، والزهرانية.

وأما القصور: فهى المقاعد المعمرة للنزهة الآن، ولعل القصور المبنية للنزهة فى الصالحية وغيرها، محدودة، وقديمًا كان تعمر العمائر للنزهة من غير طين، والعمائر المكلفة كانت للمدارس والجوامع بخلاف الآن.

ومن المحاسن: جامع تنكز، والخانقاة فى الرف الأدنى وهى إلى الآن، وفيه الآن يجرى نهر بانياس، وليس فى الشام نهر يجرى فى الجامع ظاهرًا إلاّ هذا، ونهر مدرسة العمرية بالصالحية، وهو فى الزقاق القبلى.

قال ابن المزلق : فيه شباك على خط الاستواء يَشْرُف على المرجة والأنهار، ومقابله الكوجانية؛ وهى مدرسة عظيمة مطلة على المرجة كلها، وهى بستان الآن ماعدا العمارة فى الأعلى.

قال فى النزهة :

وقيل : كان بها قبة لها طاقات بعدد أيام السنة، كل يوم فى طاقة، وهذا من أحسن الهندسة، وغالب الشرفين كله مقاعد ومحاسن وبساتين للتنزه، وفيه بعض قصور.

قال : وفى تنكز، ناموثان[1] يَفْرغان إلى حوضين كبيرين، بها سائر الأشجار، وجميع الرياحين والأزهار.

وبها : بركة مربعة بها كأس فى غاية التنوير؛ فهى للتنزه مقصد، وللمصلى معبد.

وبها: مأذنة من العجائب، ومكتوب عليها اسم معماريها مع كونها جسر، ومقصورة لها دربان، ولم يوجد مثل ذلك فى غيرها.

وكل شرف[2]: فيه عدة مدارس ومساجد، ولكل واحد مما يكفيه، استولى عليه أيدى المتشبهة بالفقهاء، فأظهروا فيه أنواع المناشد، وكل من الشرفين مطل على القصر الأبلق والمرجة.

والشرف؛ اثنان:

الأعلى، وفيه : المدرسة الكوجانية ،والمزية، والأمجدية ممن كان فيه أماكن الإمارة وغيرهم، وقصور إلى قُرب الربوة.

قال ابن طولون[3] : ومساجد وخطب، وبطل ذلك وخرب، وكان فيه بعض حوانيت وخانات؛ وأوله البولسية المدرسة العظيمة، وكان يعرف بدار الإمارة، أُبطل كله فى ليلة بعد العصر.

وكذلك الشرف الآخر وفيه : عدة مدارس، وأوله الحامية المشهورة، والآن به أيضًا المدرسة المولوية، وانتشأ به قصور للنزهة بعد تلك العمائر والمحلات العامرة، وكانت قرب الخلخال فى الشرف الأدنى، وقربها عمائر، وكان قرب الخلخال: جامع بخطبة، وخوانق إلى غير ذلك؛ فسبحان من لا يتغير شيئًا.

والشرفان : كل منهما مطل على الميدان، والشقراء، وصدر الباز، وبين النهرين، وليس إلاّ الآثار، والأسماء على تلك المسميات.

وفيه يقول، فى الشرف، الشمس النواجى رحمه الله تعالى[4] :

---

(١) هكذا فى المخطوط.

(٢) الشُرُفُ، مفردها شرفاء: البناء الكبير. انظر: القاموس المحيط، مادة [شرف].

(٣) انظر: تاريخ الصالحية، لابن طولون (٨٦/١).

(٤) الشمس النواجى، هو : محمد بن حسن بن على بن عثمان، القاهرى، شمس الدين، أديب، شاعر، رحل وطاف بالبلدان، توفى سنة (٨٥٩هـ) انظر: الضوء اللامع (٢٢٩/٧) شذرات الذهب (٢٩٥/٢) .

أَلا إن وادى الشـــام أصبـــح آيـــةً محاسـنهُ مـا بيـن أهـل النهـى تُتْلـى
وإن شـرُفتْ بـالنيل مصـرُ فلـم تَـزلْ دمشـقُ لهـا بالغوطـةِ الشـرفُ الأعلـى

قال ابن المزلق : ونقلت من خط، العلائى، على ابـن الشـرف المـاردينى[1]، فى غلام اسمه علىً من محلة الشرف الأعلى :

حـىّ علـىّ ولكـنْ وجهـهُ حَسَـنُ وفِعْلـهُ المُرْتَضَـى يَحْلُـو بـه الشِـفَقُ
بـدرٌ مـن الشـرفِ الأعلـى لـه نسـبُ وهـلْ لغـيرِ علـىّ ينسـبُ الشـرفُ

ولابن الشهيد[2] كاتب السر، فى الشقراء، والميدان الأخضر قوله :

لـم تَخْـكِ جَلْـقُ فـى المحاسـنِ قـولُ صحيـح مـا بـه بُهتَـانُ
ولئـن عـدوت متلفـا فـى غيرهـا هـا بيْنَنَـا الشـقْراءُ والميـدانُ

ومن جملة الشقراء : طاحون، وعدة حوانيت نحو عشرين حانوتا، ويعلوهم طباق مطلة على المرجة، وبآخرهم مسجد مطل على يردیا، وأدركت الطاحون غير دائرة، هدمها وكيل السلطان، برهان الدين بن ثابت فى أوائل دولة الأشرف.

قال شبيب بن حقليد : كانت المرجة عامرة أهلها، وبعضهم سماها : صدر الباز، كانت تسمى به.

ولابن تميم[3]، يصف الميدان :

عجبًـا لميدانـى دمشـق وقـد غَـدا كُـلٌ لـه شـرفُ إليـه يـؤولُ
والنهـرُ يتثناهـا لغـير جنايـةٍ سَـيْف علـىً طـول المـدى مَسْـلُولُ

---

(١) العلاء الماردينى، هو : أحمد بن إدريس بن يحيى، شرف الدين، اشتغل بالفلك، توفى سنة (٧٢٨هـ). انظر: معجم المؤلفين (١/١٠٠) .

(٢) ابن الشهيد، هو محمد بن إبراهيم بن محمد النابلسى الدمشقى، المعروف بابن الشهيد، فتح الدين، ولى كتابة السر ومشيخة الشيوخ بدمشق، عالم الأدب، فقيه، مؤرخ، توفى سنة (٧٩٣هـ) انظر: شذرات الذهب (٣٢٩/٦) الأعلام (١٩٠/٦).

(٣) ابن تميم، هو : محمد بن يعقوب بن على الحموى، شاعر من الأمراء، له ديوان شعر، توفى سنة (٦٨٤هـ) انظر: البداية والنهاية (٣٠٧/١٣) معجم المؤلفين (٧٧٦/٣) .

ومن خط البغوى محمد الحموى قوله فيها :

ذكـــرتُ أحبتِـــى بـــالمرج يومًـــا ... فقـــذفت أدمعـــى نـــارًا لوهجـــي

وصـــرتُ أُكـــابدُ الأحْـــزَانِ وَحْـــدِى ... وكَـــانَ النَّـــاس فـــى هَـــرجٍ وَمَـــرجِ

ومن بديع القاضى، محيى الدين بن عبد الظاهر :

ومـرجٌ لـه فـى وادى شـرفك منظـرٌ ... ولاسـيما إن جـاءَ غيـثٌ مبكـرُ

بـه فـاض نهرٌ من لجين بأدمعٍ كأنـه ... صفـائحُ أضحـتْ بـالنجوم تنـثرُ

تُلاحظهـا عينًـا تفيـضُ بـأدمعٍ ... يرققهـا منـا هنـالكَ محجـرُ

وكـمْ نازلتُـه بالغزالـةِ مقلـة ... تسـارق أوراق الغصـونِ فتنظـرُ

إذا فاخرتـهُ الريـحُ ولـتْ عَلِيلـةً ... بأذْيَـالِ كثبـانِ الربـا تَتَعـثَرُ

بـه الفضـلُ يبـدو والربيـع وكـمْ غـدَا ... بـه الروضُ يحيى وهو لاشـك جعفـرُ

والجعفر : اسم [للمكان] .

ومن محاسنها: الأنهار السبعة المشهورة، وقد ذكرها المقدسى من جملة قصيدة له مشهورة أولها :

ياتسـمةً لَثمـتْ حبيبـى ... وتمكّنـتْ مِنْـهُ بطيـبِ

وغَـدَا يُحَـرِكُ لطفُهـا ... أعطـافِ باتـات الكَثِيـبِ

لمنـى وعجـب ديلهـا ... قبـل العيـونِ مـع القُلـوبِ

إن جِئْـت وادى جَلَّـق ... ولثمـت مـداه العَذِيـب

ورأيـتَ متلـفِ بهجتـى ... تـرو مِـنْ لحـظِ عضُـوبِ

تَرْمـى السـهامَ لِحاظُـهُ ... فـترى النـدوبَ علـى النـدوبِ

ورأيـتَ جامِعُهَـا الشـريف ... محـلَ أربـابِ القلـوبِ

بَـرْدَى يزيـل بِحُسْـنِه ... وبمائـه صـدأ القلـوبِ

والباتيـاسُ ونقشـه ... عفـى كشـف وطيـبِ

ورأيتـهُ بـالنيربينِ ... دَعـا المحـبَ إلـى الحَبيـبِ

فتخالهـا برحيقهـا ... المختـوم أرقـم فـى صَبيـب

ويخُـور تَوْراهـا فـير ... وي الحـرثَ مـن تلـك الشـعُوبِ

ويزيـدُ دمعـى إن ذكـرتَ ... غريـد سـحا بـالذنوبِ

سـأجيبُ داعيـة النـوى ... إلاّ ودارانـى رقيبـى

وهى طويلة نظمها ببلاد الروم، وهذه المياه مختلفة؛ خفةً وثقلاً، مع أنها شيء واحد كما أخبرنى من وزن من ذلك .

وبدمشق: أعين كثيرة، وأما السفح فلا يوجد فيه شيء من ذلك.

وبتلك الأنهار: نواعير فى بيوت، ومدارس، وقصور، وبطل كثير منها، ففى الصالحية نواعير، وفى دمشق نواعير إلى الآن .

أما فى الصالحية : ففى اللشمية واحدة، وفى المرستان أخرى، وفى القصر عند مسجد العفيف، وفى أماكن آخر كثير، وفى الحديقة الأسعدية واحدة، وعند الربوة واحدة فى حديقة هناك، ولكن لا تبلغ عظم نواعيرها.

ومن محاسن ابن الوردى[1] فى غير ذلك قوله :

ناعورةٌ مذعورةٌ	ولهاءُ شكلى دائرةُ
الماء فوق رأسها	وهى عليه دائرة

ولابن نباتة[2] فى ذلك قوله :

ناعورةٌ قالتْ لنَا بآنينها	قولاً ولمْ تدرى المقال ولم تعى
كم فى من عجب يُرىَ مع أننى	أبدًا أسير ولا أفارقُ موضعى
لا رأسَ فى جسدى وقلبى ظاهرٌ	للناظرينَ وأعينى فى أضلُعى

وله أيضًا :

وناعورةٌ شَبَّهتُها إذ رأيتُها	ومازالَ فكرى بالغرائب يسمحُ
بطائرةٍ مخضرةٍ كل ريشةٍ	لها تحتها عينٌ من الدمعِ تسفحُ

---

(١) ابن الوردى، هو : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد أبو الفوارس المعمرى، زين الدين، فقيه، أديب، مؤرخ، ولى القضاء بمنبج، وتوفى فى حلب سنة (٧٤٩هـ) انظر: الدرر الكامنة (١٩٥/٣) النجوم الزاهرة (٢٤٠/١) .

(٢) ابن نباتة، هو: محمد بن محمد بن الحسن الجذامى، الفارقى، المصرى، أديب، وشاعر، ومؤرخ، سكن الشام، توفى سنة (٧٦٨هـ) انظر: الدرر الكامنة (٢١٦/٤) النجوم الزاهرة (٩٥/١١) .

ولابن الخطيب الأندلسى[1] فى ذلك :

نـــاعورةٌ تحســـب عـــن دُرَيّهـــا ... مقيمًـــا يخلـــوا إلـــى زائـــرِ
كأنمـــا كِيزانُهـــا عصبـــة ... رَمـــوا بصـــرفِ الزمـــن القـــاهرِ
قَـــدْ منعـــوا أن يلتقـــوا فـــاغْتدوا ... أولهـــم يبكـــى علـــى الأخـــرِ

ومن بحر القيراطى :

ونـــاعورةٌ قـــد ضـــاعفتْ بنواحِهَـــا ... نِواحـــى وأجـــرت مقلتـــاىَ دموعَهَـــا
وقـــد ضعفـــتُ ممـــا تئـــنُ وقـــد غـــدتْ ... مـــن الســـقمِ والشـــكوى تعـــد ضُلوعهَـــا

ولابن القضاعى[2] :

وذاتَ شـــــجوٍ أســـــالتْ ... مدامعًـــــا لـــــم تَصُنهـــــا
تبكـــــى بفـــــرطِ دمـــــوعٍ ... ويضحـــــكُ الـــــروضُ مِنْهَـــــا

ولابن نباتة أيضًا :

ونـــاعورة قســـمت حســـنها ... علـــى واصـــف وعلـــى ســـامع
وقـــد ضـــاع نشـــر الرُّبـــا فـــاغتدت ... تـــدور وتبكـــى علـــى الضـــائع

وله أيضًا :

أعجـــب لنـــا نـــاعورة قلبهـــا ... للمـــاء منشـــى العيـــش والعشـــب
تعبانـــــة الجســـــم ولكنهـــــا ... تـــــرى طيبـــــة القلـــــب

وللأمير مجير الدين بن تميم :

أبـــدت لنـــا بـــالعذر نـــاعورة ... أدمعهـــا فـــى غايـــة الســـكب
تقـــول لمـــا ضـــاع قلبـــى وقـــد ... ضعفـــت بـــالنوح وبـــالندب
صـــيرت جســـمى كلـــه أعينـــا ... تـــدور فـــى المـــاء علـــى قلبـــى

---

(١) ابن الخطيب الأندلسى، هو: محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلمانى، الأندلسى، ذو الوزارتين، من الأدباء والشعراء، المشهورين، من آثاره: طرفة العصر فى دولة بنى نصر. انظر: الدرر الكامنة (٤٦٩/٣). معجم المؤلفين (٤٤٠/٣).

(٢) ابن القضاعى، هو: جابر بن إبراهيم بن على التنوخى الشافعى، شاعر، عالم بالعروض، والنحو. من تصانيفه: ديوان شعر. انظر: الكواكب السائرة (١٣٠/٢). معجم المؤلفين (٤٦٩/١).

ومن تضامن ابن تميم :

ونـــاعورة شـــبهتها حيـــن ألبســـت ... من الشمس ثوبًا فـوق أثوابها الخضر
كطـــاووس بســـتان يـــدور وينجلـــى ... وينفـــض عـــن أثوابـــه بلـــل القطـــر

ومن لطائفه رحمه الله تعالى :

نـــاعورة مُـــذُ ضـــاع عنهـــا قلبهـــا ... دارت عليـــــه بـــــأدمعٍ وبكـــــاءِ
وتعللـــــت بلقائـــــه فلأجـــــل ذا ... جعلـــت تـــدور عيونهـــا فـــى المـــاء

ولبعضهم :

ونـــــــاعورة هيّجـــــــت ... يـــــوم بـــــانوا بِنَـــــا الجـــــوى
فأعجبـــــوا مـــــن متيـــــم ... قلبـــــه هـــــام بـــــالنوى

ولبعضهم :

نواعـــــير نعـــــت لـــــىَ ... رشـــــا للقلـــــب راعـــــى
فهـــــام القلـــــب منّـــــى ... علـــــى حســـــن النواعـــــى

ولبعضهم :

لقد كنت غصنًـا فـى الريـاض منعمًـا ... أَمِيسُ ونصبى فى أمـان مـن الخفـضِ
فصيرنـا صـرف الزمـان كمـا تـرى ... فبعض كما لاقيت يبكى علـى بعـضِ

ولبعضهم :

أبـدى لنـا الـدولاب قـولاً معجبًـا ... لمـــا رأتـــا قـــادمين إليـــه
إنـى مـن العجـب العجـاب كمـا تـرى ... قلبـــى معـــى وأنـــا أدور عليـــه

ولبعضهم :

وذات شـــــجو أســـــالت ... مدامعًـــــا لـــــم تصنهـــــا
تبكـــــى بفـــــرط دمـــــوع ... ويضحـــــك الـــــروض منهـــــا

ولابن تميم :

ونـــاعورة قـــالت وقـــد ضـــاع قلبهـــا ... وأضلعهـــا كـــادت تُعـــد مـــن الســـقم
أدور علـــى قلبـــى لأنـــى فقدتـــه ... وأمـا دموعـى فهـى تجرى عِلـى جسـم

ولبعضهم :

ودولاب إذا نـــــــــاح ... يزيـــــد الصـــــبّ أشْـــــجَانَا
سـقى الغصـــــن وغنّـــــاه ... فـــــلا يـــــبرح سَـــــكْرَانَا

ولبعضهم :

وحاملـــة للمـــاءِ محمولـــة بـــه ... كما كان حكم الروح للجسم حاملاً
تميل بـــه طـــورًا وطـــورًا تميلـــة ... فـأعجب بميـــالٍ بهـــا عـــاد مـــائلاً
وقد قُسمتْ شـطرين بـالفرض مثلما ... تقسـم وقـت وهـو مـــازال ســـائلاً
إذا مـــا امتـــلا شـطرًا تصعـد عاليًـــا ... ومهمـــا خـــلا شـطر تحـــدر ســـافلاً
كما كان حكم الروح للجسم حاملاً ... فلمـــا خـــلا منهـــا هـــوى متثقـــلاً

ولبعضهم :

ودولاب ينـــــن أنيـــــن صـــــب ... كنيـــب نـــازح الأهليـــن مضنـــى
تذكـــر عهـــدَه بـــالروضِ غُصنًـــا ... ومحنـــة قطعـــه فبكـــى وأنـــا
ومـــا يـــدرى أترديـــد لمعنـــى ... شـــجاهُ أم حنيـــنُ جـــوى المغنـــى

ويسأل بعضهم المفتى الغزى ملغزًا :

يـــا أيهـــا الحـــبرُ الـــذى ... عِلْـــمُ العـــروضِ بـــه امْـــتزجْ
بيّـــن لنـــا دائـــرةً ... فيهـــا بســـيْط وهَـــزَجْ

ففكر ساعة، ثم قال فى ذلك : الناعورة، والبسيط هو الماء، والهزج : نوع من الغناء يقال: صوت هزج، أى طيب، وأراد بالدائرة : الدولاب، لا دائرة العروض ولا بحر البسيط.

وفى لغة الفارسية : الدولاب يسمى الناوردة.

وعليه قول ابن النقيب السيد عبد الرحمن :

يـــاهلالاً يـــدُور فـــى فَلَـــكِ النـــاوردِ ... رفقًـــا بـــالأعين النظَّـــارة
قِـفْ لَنَـا فـى الطريـقِ إذ لـم تزرنـا ... وَقْفَـةً فـى الطريـق نقـفُ الزيـارة

ولعله اسم مشترك فى كل دولاب، ويحتمل أن يكون الناورد اسم قبة الدولاب التى يركبها الأولاد أيام العيد وتدور فيهم، أو يكون مثل الفلك له اسمًا آخر، والناعورة، ودولاب الغزل، ودولاب الهوى كلها شىء واحد فى العربى.

ولبعضهم :

ودائـــرة تـــدورُ بوسْـــطِ مـــاءِ ... وقـــد أعيـــا لأضلاعِهَـــا الفتـــل
اقـامت لهـــا الأدلاء تـــنزح ماءهـــا ... لتخلص من عين ومـا قصدهـا نهـل

محلتا الخلخال والمنيبع[1] :

قال ابن المزلق فى (نزهة الأنام) : بها سويقة، وحوانيت، وفرن، وحمام، وهى مسكن الأتراك، وكذلك المنيبع، والشرفين، وبهما تدق طبولهما كالدار المنسوبة لابن جان بلاط؛ أعنى الكوجانية قبل أن تجعل مدرسة.

قال : وبها رواقان للأدهمية وهى لحق النّاس والأعيان،

وما أحسن قول ابن نباتة فى الخلخال :

يـــاحبذا يومًـــا بـــوادى جلـــقٍ ونزهـــة مـــع الغـــزالِ الخـــالِ
مـــن أولِ الجبهـــة قـــد قبلتـــه مرتشـــفًا لا مِـــنَ الخلخـــالِ

والمنيبع : بها أيضًا سويقة، وحمام، وفرن، وبها مدرسة الخامونية، وهى من عجائب الدهر، يمر بها بانياس، ونهر القنوات على بابها، وهى مطلة على الخضراء، وبها ألواح الرخام، وعدة خلاوى لطلبة، وبجوارها دار الأمير ابن منجك انتهى.

قلت : ولعلها التى يقال لها الآن : الزهرابية، سميت باسم رجل من الأروام يسمى؛ زهراب، وهى التى يفتح بابها إلى الصوفية، وهى التربة المشهورة، بها قبور أعيان العلماء؛ كابن تيمية، والعماد بن كثير، وابن الصلاح، وصفى الدين الهندى، وغيرهم من الأجلاء.

ويقال لها : تربة البرامكة، وكانت فى القديم محلة عظيمة عامرة بالبيوت والدور الهائلة فى الشرف، الأدنى كالأعلى؛ فسبحانه وتعالى.

وقال فى نزهة الأنام للأديب ابن المزلق : نقلت من خط المرحوم الشمس النواجى قوله فى وصف المنيبع :

أيـا سـادةً اهـدَوْا محاسـنَ جلـق لطرفِـى فغـاضَتْ بالبكـا عـبراتى
منيبـع جفنـى فـوق ربـوة جبهتـى يزيـد ودمعـى بعدكـم قنواتـى

قلت : وهذه من جملة المحلات المنتزهة، والآن لم يبق من المنتزهات العامرة غير الصالحية، وأما هذه الأماكن كالشرفين، وصدر الباز؛ فإنها

---

(١) انظر: تاريخ الصالحية، لابن طولون (٢٥٥/١).

تعوضت بالبساتين والحدائق والقصور، وكما فى الشرفين، ذلك ولم يبق مما ذكره ابن المزلق من النيرب، والخلخال، والجبهة، والربوة إلاّ الأماكن المجردة عن العمائر؛ بل كلها منتزهات فسحة مجردة من العمائر كالميدان، وأما غالب المنتزهات المعدة لذلك بالصالحية، وإنها فى أيام الورد ينزلها أهل دمشق، وتملأها، وتمكث بها ليلاً ونهارًا حتّى تنقضى مدة الورد، ومنهم مَنْ يأتى بجميع الحوائج، ومنها عند القصورية المعدة للمتنزهين من الصحون، والمعالق والطناجر واللحف، والبسط ،وبها مقاعد لا تحصى مما يغنى عن الحمل وحدائق للنزهة.

وأما بساتينها: فقَلَّ أن يجعل فيها مقعد للسرنجية إلاّ النادر.

وأما النيرب والدهشة: فكله منتزة، عاض الأشجار غزير الماء، كثير الأثمار، بعد ذلك الدور والعمائر، وتغزل به الشعراء المتأخرون أيضًا .

قلت : ومن المحلات الظاهرة الصالحية ،وقد أتى عليها صاحب كوكب الملك، وهى من محال دمشق العامرة، تشتمل على عمارات هائلة قديمة، وقد تقدم ذكر مدارسها وتعين حوانيتها من الذى اشتهر، وبها آثار قديمة، وبها مغارة الدم، والكهف؛ إنه الغار، والمقيم به كان يسمى؛ جبريل، وبه كان مئذنة، وبها مساجد لا تحصى.

وأما الجوامع : فخمسة، وتشتمل على قباب كثيرة؛ فتبلغ المئات على قبور علماء وأمراء، وبها زيارات مباركة، يُنذر لها، وتُقصد بالزيارة غالبًا؛ كالشيخ محيى الدين ابن العربى –قدّس الله تعالى سرّه–.

والشيخ أبو بكر العرودكى –قدّس الله سرّه– وابن قوام، والشيخ محمد الزغبى –قدّس الله سرّه–، ومياهها صافية، وبها قصور، ومقاعد، وجناين، وحدائق الياسمين، والبساتين دائرة حولها من كل الجهات، وهى منتزه الشام فى كل وقت، خصوصًا فى أيام الورد أكثر.

وأما مدارسها : فهى أكثر من مدارس الشام بكثير كالعمرية، والناصرية، والضيائية، والصارمية، والمتواتر، أن فيها قبور كثير من الأنبياء، وبها المزارات؛ بالمفخمة كالعجمية والأنجبية، والكيلانية، والجوارزمية.

وحدها كما قال ابن عبد الهادى المحدث : الشرف الأعلى قبله، ثم أرض حمام الورد، ثم أرض مرج الدحداح، ومن جهة الشرق أرض بيت لهيا ثم مطية السلطانى، ثم برزة، ومن الشمال الجبل.

وأما السفح فحده : من الربوة إلى برزة، والربوة إلى جسر شواش، فكل ما كان فهو من الصالحية، وتغزل به الشعراء.

وللبوريني[1] العلامة موالاً قوله:

بالسفح من قاسون الشام نحو السهم رشا من الترك لكن ناظره من سهم

يرنو فيرمى بقلبى من لحاظه سهم ما يمنعوا لو جعل لى من وصاله سهم

ولابن نباتة فى منتزهات دمشق وهى السهم والسطر:

يا صاح ما فى جلق نزهة تنسيك من أنت به مغرى

يا عاذلى داؤك من لحظه سهمًا ومن عارضه سطرًا

وأخذ منه الجلال بن خطيب داريًا[2]:

سألتكما بالله إن جئتما الشام بكرة وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرًا

قفا وأقرأ منّى كتابًا كتبته بدمعى بكم مغرى ولاتنسيا سطرًا

والطر: كان محلة مقابل جامع أكلجك عند برج الروس، وهو الطريق الآخذ للسفح مقابل باب الجامع، والآن أحسن منتزه ؛ لأن بساتينه وحدائقه لا تحصى، ليس فيها موضع شبرٍ خالٍ من الزرع والأزهار، وإن كان قبله فيه عمارة، وفيه بستان الباشا المشهور بيدبنى الأرنؤوط بدمشق، وغيره أكبر منه.

---

(١) البوريني، هو: حسن بن محمد بن حسن بن عمر الصقورى، الدمشقى، بدر الدين، مفسر، مؤرخ، أديب، شاعر. من آثاره: تراجم الأعيان. توفى سنة (١٠٢٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٥٨٩/١).

(٢) ابن خطيب داريًا، هو: محمد بن أحمد بن سليمان بن عساكر الأنصارى، أبو عبد الله، أديب، مشارك فى علوم النحو واللغة والتاريخ، من آثاره: محبوب القلوب، الليث والضرغام. توفى سنة (٨١١هـ). انظر: معجم المؤلفين (٦٧/٣).

ومن المحلات العامرة المنتزهه التابعة؛ للصالحية :

الجسر الأبيض: وبه سويقة وطابونة، ومكان للقصف، والنزهة وسمى الآن النهودة، وغرار، ويمان، وحمام عبد الباسط وهو من أنزه الحمامات، ولصقه حارة عامرة، وقصور لبعض الكبراء يكونوا فيها أيام الصيف، وقربها المارداني، وفيها خطبة ولصقها المدرسة الديراهيمية، وقربها الباسطية أيضًا، وحدائق لاتحصى متصلة كلها مشتبكة بالزروع والأشجار، وقبل ذلك كان محلات كالسهم، وهى بيوت متصلة، والآن حدائق وبساتين، وقربه محلة السفلية، وبه حمام وسوق كالجسر الأبيض، وحدائق، وبيوت لبعض الكبراء كدار شنتمر وغيره، وقريب منها محلة السبع قاعات.

قال الحافظ ابن عبد الهادى فى تاريخ الصالحية: دخلها وكانت منهدمة، وكان محلة الركنية، وهى الآن لا أثر بها، ومحلة جامع النحاس، وبه جامع، وحمام، والآن لم يبق سوى تربة قرب الركنية، ومحلة طاحون الشنان، وهى الآن لا أثر بها سوى المدرسة الرحيمية، والقبة، والتربة مسكن إلى الآن، وهو مكان مبارك، وكان به خطبة بَطُلت فى عصره. وهناك فى ذلك الخط قباب وترب عظيمة على خط المدرسة، ومحلة طاحون الشنان عندها مئذنة، ومسجد، وحمام، وحوانيت، وقربها محلة قصر اللبان، وعنده تربة عظيمة قلت: وكان لها محلة أخرى يقال لها: المنظور، وتغزل به الشعراء، وكان بها دار الحافظة المحدثة: كريمة[1] وسماها فى (كوكب الملك ودولة البترك): مدينة الصالحية لعظمها وكبرها وكثرة جوامعها ومدارسها وخوانقها إلى قرب ديرمران، وتقدم أنها اشتملت على نحو عشرين حمامًا.

وأما مدارسها: فنحو المائة ماعدا الزوايا والجوامع والمساجد والترب المكلفة والآبار.

وبها قبور الأعلام والأولياء الفخام، والآن لم يبق إلاّ الذّى انتشأ من زمن أبى عمر صاحب المدرسة المشهورة، والذى كان قبله تخت يزيد من السهم والمسطور وقصر اللبان والنيرب والدهشة والربوة، لم يبق إلاّ الاسم، وتعوضت

---

(١) كريمة: اسم أطلق على عدة محدثات وراويات للأخبار.

مكان العمارة بصنوف الأشجار والثمار يقلب الله اللَّيل والنهار، والآن بها قمز خطب السليمة، والمظفرية، والخاتونية، والماردانية، والحاجبية، وكان قديمًا يصلى الجمعة بالجامع الأفرم، وبطل .

ووجدتُ بخط بعض العلماء: أنه كان بالناصرية خطبة، وفى الربوة وفى الدهشة، لكن لم يكن تجدد هؤلاء، وبالسليمية كان خطبة وهى بالمدرسة البدرية، وأدركها بعض من أدركنا ممن أدركه، والآن بها خمسة حمامات.

وأما القصور، والحدائق، والجنائن، والمقاعد ؛ فمما لا يحصى، وليس فيها شىء من ذلك خراب.

محلة الربوة :

قال الأديب ابن المزلق فى نزهة الأنام فى محاسن الشام:

ومحاسن الشام: الربوة ؛ محلة الربوة أحدثها بنوكنعان، وقال بعض المفسرين فى الربوة: أحدثوها بنوكنعان، وابتدؤها، وذكرها الله فى القرآن فى قوله تعالى ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. وهما عيسى ومريم عليهما السلام.

قال الحافظ فى تاريخ الصالحية: قال عدة من العلماء: إنها ربوة دمشق.

وذكر البيضاوى فى تفسيره هذه القول، وقال به الدينورى فى تفسيره.

قلت: والربوة: المكان المرتفع.

والغوطة: الوادى المتسع.

قال ابن المزلق : وإنما قيل لها ربوة؛ لأنها مشرفة على الغوطة بها منارة لطيفة بسفح الجبل الغربى، وبه صفة ومحراب يقال له مهد عيسى عليه السلام يزار، وينذر له، وبها جامع، وخطبة ،ومدارس، وعدة مساجد، وقاعات، وأكناف، وبها المقسم[1]، ومرابط للدواب، وبها سويقتان قاطع بينهما نهر بردى، وبها صيادة السمك، والقلايون على بردى، ويذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأس من الغنم سوى ما يجئ من الشام، وبها عشر شراخية ليس شغلهم غير الطبخ، وبها فرنان، وثلاثة حوانيت برسم الخبز التنورى، وبها الفواكهية، وليس لها قيمة

---

(١) انظر: تاريخ الصالحية، لابن طولون (٢/٣٦٩).

لكثرتها كالمُشمُش والتفاح وغير ذلك، وفيها حمام ليس على وجه الأرض مثله لكثرة المياه ونظافتها، وله شبابيك تطل على الأنهر، وهو بين النهرين لعله بردى وتورا، بل بين القنوات والبانياس فى الجهة الغربية قرب صفة المصافى، وخرب وصار مقصفًا أرضًا لبنى القلوصى، ثم انهدم خوف المفاسد، وكان بها المدرسة للمحدث الديلمى الذى حددها نور الدين الشهيد، ولها أوقاف على قراء، وقراءة البخارى، ووعظ، ومؤذن، وفرَّاش، وبَوَّاب.

وقال فيه التاج الكندى[1]:

إنَّ نورَ الدينِ لما أنْ بنالى ... فى البساتين قصورَ الأغنياء

عَمَّرَ الربوة قصرًا شاهقًا ... نزهة مطلعة للفقراء

وبها القاعة بناها نور الدين الشهيد على شعب الجبل -يعنى الشرقى- جميعها منحوتة بالأخشاب، سقفها نهر يزيد، وأساسها نهر تُورَا، ومنظرها من الغايات التى لا تدرك، وقبالها الجبل الغربى بذيله دف الزعفران، والشرقى بسرامسة مثل الجنك، وأطنب الشعراء فى وصفها.

قال ابن نباته:

بالجَنْك من مغنى دمشق حمائمٌ ... فى دف أشجار تشوقُ بلُطْفِها

فإذا أشار الشجر برأسه ... غنّت إليه بجنكِها وبدُفها

وللصلاح الصفدى[2]:

انهض إلى الربوة مستمتعًا ... تجد من اللذات ما يكفى

فالطير قد غنى على عوده ... فى الروض من الجنك والدف

---

(١) تاج الكندى، هو: زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير بن الحارث، أبو اليمن، مقرىء، نحوى، أديب، شاعر، ولد ببغداد وتوفى بدمشق سنة (٦١٣هـ). من آثاره: إتحاف الزائر، شرح خطب ابن نباته. انظر: سير أعلام النبلاء (١٢٤/١٣)، معجم المؤلفين (٧٣٩/١).

(٢) الصلاح الصفدى، هو: خليل بن أيبك بن عبد الله، أبو الصفاء، أحد الأدباء الشعراء، مؤرخ ولغوى، أخذ الأدب عن ابن نباتة وشهاب الدين محمود. من آثاره: الوافى بالوفيات، غيث الأدب. توفى سنة (٧٦٤هـ). انظر: شذرات الذهب (٢٤٣/١)، معجم المؤلفين (٦٨٠/١).

ولبدر الدين بن حبيب الحلبى[1] :

كم تحت جنك الربوة الفيحاء من ... دف زهت أزهاره بشنوفها

سُقيًا لها من ربوة من حل فيـ ... ـها أطربته بجنكها ودفوفها

ولشرف شعبان:

أودّ بأنّى لو أرى الجَنك ساعة ... وأنفق فيها كلّ ما أنا أملك

فليس لنفسى فى هوى الجنك مطلب مطلب ... ودعهم يقولوا فيه للصَّب مهلك

قال ابن المزلق: ونقلت من خط الشرف القواس:

سر بى إلى الوادى وقف منتزهًا ... فالجنك قد غنت بها الأطيارُ

لو لم يكن هو جنة المأوى لنا ... ما كان تجرى تحته الأنهارُ

ونقلت من حرير القيراطى قوله :

سقى الجنك منهل الرباب فشوقنا ... لطيب معالى أرضة ماله حصر

وحيى يقطر الشام أنهارها إلىَ ... على شهدها للدمع من مقلتى قطر

وجادت سماء الغيث أرض سمائها ... غصون رياض الزهر آفاقها الزهر

فكم جاءنى منها نسيم ممسك ... وعرفها للقادمين بها القطر

وطلع الشمس الخياط ضفدع[2] مع ابن خلكان[3] القاضى إلى الربوة، فوجد غلمان يعمون بثورى تحت النحوت المعروفة بالمنيقبة .

فأنشد:

لربوتنا وادٍ حوى كل بهجةٍ ... فعيش الورى يحلو لديه ويعذب

تزف له الأنهار من تحت جنكة ... فلا عجبًا أنا نخوض ونلعب

---

(١) بدر الدين بن حبيب، هو: الحسن بن عمر بن الحسن، الدمشقى، أبو محمد، عالم مشارك فى أنواع العلوم، ولد بحلب وتوفى بها سنة (٧٧٩هـ). من آثاره: أخبار الدول، مقامة الوحوش. انظر: شذرات الذهب (٢٦٢/٦)، معجم المؤلفين (٥٧٥/١).

(٢) الشمس الخياط ضفدع، هو: محمد بن يوسف بن عبد الله، الدمشقى، أديب وشاعر، اعتاد مدح أعيان الدماشقة، من آثاره: ديوان شعر. توفى سنة (٧٥٦هـ). انظر: الأعلام (٢٧/٨)، معجم المؤلفين (٧٨٣/٣).

(٣) ابن خلكان، هو: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن باول أبو العباس، فقيه، شاعر، شارك فى مختلف العلوم، تولى قضاء دمشق وتوفى بها سنة (٦٨١هـ). من آثاره: وفيات الأعيان. انظر: الوافى (١٢١/٦)، معجم المؤلفين (٢٣٧/١).

وأنشد ابن خلكان رحمه الله تعالى أيضًا بقوله:

وسرب ظباء فى غدير تخالهم ... بدورًا بأفق الماء تبدو وتغرب

يقول خليلى والغرام مصاحبى ... أمالك عن هذا الصبابة مذهب

وفى دمك المطلول خاضوا كما ترى ... فقالت لهم: دعهم يخوضوا ويلعبوا

قلت، وعدت أبيات الآبار السابقة:

أود بأنى لو أرى الجنك ساعة ... وأنفذ فيه ما يحب ويطلب

وليس لنفس فى سوى الجنك مأرب ... ودعهم على سمعى يسبوا ويقشبوا[1]

وزدنا فى مراعاة المثل، **قال الشمس بن طولون** فى نوازل الزمان:

وفى يوم السبت سادس عشر منه أى محرم سنة أربع عشرة وتسعمائة: ذهب الشيخ عبد القادر[2] بن حبيب الصوفى الصفدى إلى الربوة، وكانت ملآنة من الخلق، وشق فى سوقها الرعاع، ومعه جماعة يعملون بالكف والشباب[3] .

قيل: كان العمار إلى ذلك الحد، ثم صارت وقعة قازان، فهدموا منها المحراب فخربت، ثم أرسل ملوك مصر أن يعمروها فلم يفدوا.

وقيل: كان بها على حافة تُورا تخوت للنزهة نحو المائة وعلى غيرها من الأنهار، وكان بها قبة خضراء، ثم رحل من مشايخ الملك الظاهر بيبرس. وفيها مكان يقال له: العاشق والمعشوق.

وأما المأذنة عند المنشار لصيق يزيد، باقية إلى الآن، وأما المسجد فقد خرب والدور.

قال النعيمى رحمه الله تعالى فى كتاب [**الدارس فى الجوامع والمدارس**] فقال فى ذكر الجوامع: جامع الربوة.

قال الذهبى فى ذيله: فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة فى شهر ربيع الأول جدد جامع فى الربوة بخطبة وإمام ومؤذنين، وقال: جامع النيرب وهو بخطبة وهو فى محل الربوة أيضًا.

---

(١) يقشبوا: يعبروا بالشىء ويلوموا عليه. انظر: القاموس المحيط، مادة [قشب].

(٢) عبد القادر بن حبيب الصفدى، هو: ابن محمد بن عمر، الشافعى، أديب، شاعر، له عدة مؤلفات منها: سلك التوفيق بسواء الطريق، سلك العين لإذهاب الغين. توفى سنة (٩١٥هـ). انظر: كشف الظنون (٢٦٨)، معجم المؤلفين (١٩١/٢).

(٣) الشباب ما يوقد به النار. انظر: القاموس المحيط، مادة [شب].

قال الحافظ ناصر الدين فى مسودة توضيحه: النيرب: قرية من قرى الغوطة، وهى قرية حنا من قرى دمشق من اقليم بيت لهيا، كثير المياه، كثير الأشجار، وبها جامع حسن تقام فيه الجمعة، ويقال فى شرقيه قبر حنا: أم مريم عليهما السلام.

قال ابن شداد: وليست مريم بنت عمران، ولها مكانة.

وفى تاريخ دمشق لابن عساكر[1]: أن الخضر عليه السلام يبات فى هذا المسجد ويصلى فيه، ويُرْوىَ أن عيسى كان عليه السلام يصلى فيه.

وقال ابن كثير[2]: فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائه توفى أمين الدين محمد بن محب الدين بن محمد بن أبى العيش الأنصارى الدمشقى ،وصلى عليه بالأموى، ودُفِنَ شمالى الجامع المظفرى بالسفح، وكان من التجار الأتقياء الأماجد، ودخل اليمن، وعمر تحت الربوة مسجدًا على حافة بَرَدَى، وتكلم على جامع النيرب، وعمر مطهرة إلى جانب مسجده، والسوق الذى هناك، وله بجامع النيرب خزنات، وهو ميعاد حديثه، وعمل وقتًا فى المسجد فى الحديث قبيل صلاة الجمعة.

قلت: وبقيت مأذنته إلى يومنا هذا.

وأما القبة باقية وفيه نظر ؛ لأن القبة لصيق الجامع، وفيه قبر مفطم، والمؤرخون ذكروا أنه دفن شمالى المظفرى فليتأمل.

وأما مبادىء الخراب ؛ فمن تاريخ ماذكره النعيمى فى مدرسة الأسعدية[3].

قال ابن قاضى شهبة[4] فى الذيل: وفى جمادى الأولى سنة عشر وثمان مائه خرب ثلاثة أماكن أحسن منتزهات دمشق: الدهشة، وبستان النشوى على حافة تُورَا عند الربوة وبستان ابن جماعة بالمنزه ،وهذا نقلت إليه إلى مدرسة الخواجة بن الأسودى، وتنتفع الناس بها، وفرغت العمارة فى سنة سابع عشر وثمانمائة.

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (١/١٤٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٥/١٨٢).

(٣) انظر: الدارس (١/٥٦).

(٤) ابن قاضى شهبة، هو: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن ذويب، الأسدى، تقى الدين، فقيه مؤرخ، مفسر، من آثاره: طبقات الفقهاء الشافعية، تاريخ ابن قاضى شهبة. توفى سنة (٨٥١هـ). انظر: كشف الظنون (١٢٧)، معجم المؤلفين (١/٤٣٥).

ويستفاد من كلامه فى تاريخ الخراب الباق، وإلا فالنيرب حرقها القادر من الحصار سنة خمس وخمسين وخمسمائة، لكن لم تتلف بالكلية أو أنه تاريخ تلقها، والربوة[1]، والدهشة – بقيت إلى هذا التاريخ، وهو عصر الثمانمائة .

قلت: وسبب الخراب فى هذه المحلات من الربوة وغيره كالنيرب – الواقعات ؛ كوقعة قازان، ووقعة ملك الألماق.

قال النعيمى فى الدارس[2] سنة (٥٤٣) نزل الفرنج على دمشق، وكان نائبها أمير الأمراء القر بن محمد غورى، والمدبر لها نزل، ولم يشعروا إلا وملك الألماق خيَّم على أراضى المنزه، وما والاها، وزحف على البلد بخيله ورجله وكان معه نحو تسعون ألفًا راجلاً وعشرة آلاف خيالة، فخرج إليه معين الدين، ومحب الدين أنزل الثانى وابق فى مائة ألف وذلك يوم السبت فى شهر ربيع الأول، وقاتلوا قتالاً شديدًا، وقُتِل شيخ المالكية القندلانى عند النيرب قرب الربوة، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الجلجولى، وقتل نحو المائتين ؛ فكسر الكافرالملعون، وكف الله شرَّه، والآن لم يبق إلا المرج على حافة الأنهار، والحدائق، والبساتين لأربابه من دمر والمزة، وإلى الآن لا ينقطع التنزه إليها، وليس فيه مكان عمارة، لكن أدركت النوفرة، وهى فى مكان تحت صفة العوافى غربيها عمارة مكلفة نَبَاتُ فيها أيام الصيف، ومقعد على نهر بردى شرقيها، ومكان آخر لمقعد الأكابر غربى الربوة أيضًا، فخربه المتقدمون ولم يجدد، والنوفرة خربها بعض ذرية من أنشأها محمد جلبى القلوصى بفساد كان يقع، والمكان الآخر مثله، وخُرِّبَ الجميع، وكان بها القبة الخضراء، ولم ندرك لها أثرًا، وكان عين السخنة أدركتها، وعليها قبة صفراء والآن خربت وشنفت، ولم يعلم لها خبر، والعقبة خربت وكان محلها بين بردى والقنوات غربًا، وبقيت المأذنة عند يزيد، وهى الآن.

والحاصل: أن الربوة إلى الآن لها روحانية وهى لاتوجد فى غيرها وجرب

---

(١) الربوة: موضع على بعد فرسخ من دمشق، يحيط بها جبل، يقال: ليس فى الدنيا أنزه منه، ويجرى فيه نهر بردى. انظر: معجم البلدان (٢٩/٣).

(٢) انظر: الدارس (٨٤/٢).

فى عداها بأشياء، ولايقع فى الجلوس فيها سأم أصلاً بل ينسى الإنسان همه وغمه وجميع الأحوال، وعليه **يقول مولانا الشيخ عبد الغنى قدّس الله تعالى سره**[1]:

إن فى الربوة برءًا ... ليس يُدنيهِ الكلامُ
فإذا ما كُنت فيها ... فعلى السأمَ السلام

ولبعضهم وأجاد فى المقال:

سَقَى الوسمىُ سفح النيربين ... وَصَالَ حيالها بالوادبين
ديارات جفاها الغيث يومًا ... سقاها الغيثُ دَمعَ المُقلتين
حوى الشرفين نادبُها فزفت ... بها الولدانُ بين الجنتين
وصدر البان أشرَحُ فيه صدرى ... بنسمةِ نشرِهِ فى الخافقين
وأُلثُمَ مهدها كالشهدِ طعمًا ... وأرتَعُ فى رياضِ الربوتين
فياللله من نور أراها ... وأنظر حسن بهجتِها بعينى
فياحادى السرى عُج بالمطايا ... وَعَرِّجْ نحوَ مرج الغوطتين
وبلغ وادى القنوات دمعًا ... سلام قتيل شوق الجبهتين
أعلل بالمنى قلبًا عليلاً ... وأنشد ناظرًا للفرقدين
وأنشد كلما قد لاح شرق ... سقى الوسمى سفح النيربين

ومن محاسن الشام: المقاسم داخل الربوة الذى ينقسم منها الأنهار، وأصل بردى من منابع التوت، **وإلى ذلك أشار البرهان القيراطى**[2]:

---

(١) الشيخ عبد الغنى، هو: ابن إسماعيل بن عبد الغنى بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم، الدمشقى، الصالحى، من العلماء الأجلاء، ومن أفضل الأدباء، له معرفة بالنظم والنثر، ويُعد من الصوفية، من آثاره: الأسرار فى منع الأشرار، إيضاح المقصود فى معنى وحدة الوجود، توفى سنة (١١٤٣هـ). انظر: عجائب الآثار (١٥٤/١)، معجم المؤلفين (١٧٦/٢).

(٢) البرهان القيراطى، هو: إبراهيم بن شرف الدين بن عبد الله بن محمد، المصرى، من الشعراء الأدباء، من آثاره: ديوان شعر يُسمى مطلع النيرين، توفى سنة (٧٨١هـ). انظر: إيضاح المكنون (٢٢٥/١)، معجم المؤلفين (٣١/١).

عنـدى لأهـل الشـام فـرط صبابـة ... فسقى حماها الرحب صوب غبوب[1]

وعيوننـا لفـراق مشمشـها حكـى ... جريـان أدمعهـا عيـون التـوت

ثم تمر على قرية الزبدانى[2] كالبحر إلى أن تلتقى بعيون الفيجة[3].

قلت: وهى أول العيون، وقيل: من باب ثلاثمائة عين تجرى إلى القبلة.

قال: وارتويت من أعذبها ورأيت غالبها.

وهو أبعد مقسم، ثم بعده تورَا أول جريانه فى الربوة بالجبل الشرقى، وبردى بطنه، ونهر البانياس[4]، وفوقه نهر القنوات، ونهر المـزة، وبعده الدرانـى بذيل الجبل الغربى، وينزل الماء فى المقاسم نحو عشرين درجة ؛ كالشادروانى الـذى رؤيته تزيل الأحزان، **وما ألطف قول القاضى صدر الدين الأدمى قوله:**

ومـا ذكرتكـم إلا وضعـت يـدى ... عليـه حـران قلبـى قـل مـا بـردا

ومـا تذكرتكـم والدمـع يسـرقنى ... إلا تحـدر مـن عينـى مـا شـردا

قـالوا: فـؤادك بـرد عـن محبتهـم ... فقلـت: نـار الهـوى لا تنطفـى أبـدا

بردت قلبى عن الأحباب مُـذ رحلـوا ... بمـا يزيـد علـى تـورى ومـا بـردا

وقال صاحب الإنشاء العلاء بن فضل الله:

انـزل ببانيـاس ففـى نهرهـا ... شـرب يحاكيـه عـروس السـرور

واسـمع حديـث المـاء فـى جريـه ... فإنـه يشـفى غليـل الصـدوره

وجمعهم الشيخ شعبان الأبارى بقوله وأجاد:

شـوقى يزيـدُ وقلـب الصـبِّ مـا بـردا ... وبـات يأسـى مـن المعشـوق حين غـدا

ومدمعـى قنـواتٌ والعـذول حكـى ... تضـورًا يَكُـونُ فـى عشـقه حـدا

علـى مُنَيْفَـةٍ بـالجنك جاوَبهـا ... شَبَّابَةٌ كـم لهـا فـى عاشـق حسـدا

فـالبدر جبهتهـا والـدف ربوتهـا ... وحبُّهـا مـات فـى خلخالهـا كمـدا

---

(١) غبوب: المطر الذى يأتى من جمعه البحر. انظر: القاموس المحيط، مادة [غبب].

(٢) الزبدانى: كورة مشهورة بين دمشق وبعلبك، منها يخرج نهر الشام. انظر: معجم البلدان (١٤٦/٣).

(٣) الفيجة: قرية بين دمشق والزبدانى عند مخرج نهر بردى. انظر: معجم البلدان (٣١٩/٤).

(٤) بانياس: نهر مشهور فى الشام، وبه ميناء مشهور. انظر: معجم البلدان (٣٩٣/١).

ومن محاسن الأمير بن درباس[1]:

والنهر قد عشقَ الغصون ولم يزل ... أبدًا يمثِّل شخصَها فى قلبهِ
حتى إذا فطن النسيم فجاءهَا ... من نحوه فأمالها عن قربهِ
وأتى عليه مهيمنًا بغنائِهِ ... سرًا فحيدَ وجهه من عُتْبهِ[2]

ومن عقود بن لؤلؤ الذهبى[3]:

ما فتَّح النَّور إلا اشرفَ النورُ ... فما اشتغالُكَ والمنثورُ منثورُ
ياجنةً ودروع الماء ينسجها ... أنامل الريح لولا أنها زُور

ولابن قرناص[4]:

وتحدثَ الماء الزلال مع الحصى ... فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكأن فوق الماء وشيًا ظاهرًا ... وكأن تحت الماء درًا مضمرًا

وقال سامحه الله:

أيا حسنها من رياض غدا ... جنونى فنونًا بأفنانها
مشى الماء فيها على رأسه ... لتقبيل أقدام أغصانها

وقال أبو القاسم بن علىّ فى منار الأغصان فى الماء:

انظر إلى الأغصان كيف ترقرقت ... فبدا بها شبح الغصون المنيِّس
معكوسة الأشكال تحسبُ أنها ... قامت على الأيدى له والأرؤس

---

(١) الأمير ابن درباس، هو: عمر بن عيسى، الحفصى، أبو على، أمير أندلسى، من الأمراء الشعراء، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٦٤٦هـ). انظر: معجم المؤلفين (٥٧٠/٢).

(٢) حيده: أماله. عتبه: الملامة والعتاب. انظر: القاموس المحيط، مادة [حاد]، [عتب].

(٣) ابن لؤلؤ الذهبى، هو: يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله، الدمشقى، بدر الدين، من شعراء الدولة الناصرية بدمشق، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٦٨٠هـ). انظر: كشف الظنون (٧٦٨)، معجم المؤلفين (١٧٨/٤).

(٤) ابن قرناص، هو: إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن أحمد، الخزاعى، شاعر وأديب، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٦٧١هـ). انظر: كشف الظنون (٧٦٧)، معجم المؤلفين (٧١/١).

وأبدع منه قول المنازى من قصيدة[1]:

نزلنـــا دوحـــة فَحَنَّـــى علينَـــا ... حُنُـــوّ المرضعـــات علـــى الفطيـــم
وأشْـــربَنا علـــى ظمـــأٍ زُلالاً ... ألـــذ مِـــنْ المدامـــة للنديـــم

وما أحسن قول ابن المشد:

والـــروضُ بيـــن تكـــبُّرٍ وتواضُـــعٍ ... رَكَـــعَ القضيـــب بـــه وخـــر المـــاءُ

وقول ابن النبيه:

تبسَّم ثغـر الزهـر عـن شـنب القطـر ... ودبَّ عِـذارُ الطـلّ فـى وجنـةِ النهـر
فـــإن رقّ واعتـــلّ النســـيم صبَابـــةً ... إذا مـرّ فـى تلـك الريـاض فعـن عـذر
توسوســه الأغصــان عنــد هبوبــه ... فمـا برنـت إلاّ علـى رقيـة البـدر
يحـادُ عـن الـورد الجنـى فـإننى ... بوضنة من أهواه قد حِرْتُ فيِ أمرى
ويبسـمُ عـن ثغـر الأقـاح بنفسـج ... فألثمـه شـوقًا إلـى لَعَـس القطـر

ولابن تميم[2]:

والنهـرُ قـد علَّـقَ النسـيمَ بقلبـهِ ... أضحـتْ تُطيـلُ صـدودَه وجَفَـاه
فـتراهُ يجـرى لاثمًـا أقدامَهَـا ... وخريـره يشـكو الـذى يلقـاه

ومن لطائفه:

ونهـر خـالفَ الأهـواءَ حتـى ... غـدا طوعًـا لهـا فـى كـلّ أمـرِ
إذا رفـت علـى الأغصـانِ ألقـتْ ... إليـه بهـا فيأخذُهَـا ويجـرى

ولابن لؤلؤ وفى نسخة للصلاح:

وحديقـةٍ مطلولـةٍ باكرتُهَـا ... والشمس تشرق فوق أزهار الرُبا[3]
يتكسـر المـاء الـزلال علـى الحصـى ... فـإذا جـرى بيـن الريـاض تَشـعبا

---

(١) المنازى، هو: أحمد بن يوسف، السليكى، أبو نصر، وزير، كاتب، شاعر، من آثاره: ديوان شعر. توفى سنة (٤٣٧هـ). انظر: البداية والنهاية (٥٤/١٢)، معجم المؤلفين (٣٢٨/١).

(٢) ابن تميم، هو: محمد بن يعقوب بن على، الحموى، مجير الدين، من الأمراء الشعراء، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٦٨٤هـ). انظر: معجم المؤلفين (٧٧٦/٣).

(٣) الربا؛ جمع ربوة: كل ما ارتفع من الأرض. انظر: القاموس المحيط، مادة [ربا].

obeikandl.com

وله:

والنهـــرُ كـــالمِبْرَدِ يجلـــو الصَّـــدَا ... بـــــبردِهِ عـــــن قلـــــب ظمآنِـــــهِ

ومن نكته البديعة:

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها ... عليه ولاحت فى ملا بسها الخضر

رأينا الذى أبقت به من شعاعها ... كأنا أرقنا فيه كأسًا من الخمر

ومن معانيه:

وحديقـة ينسـابُ فيهـا جـدولٌ ... طَرفِى برونق حُسْنه هريش[1]

يبدو خيـال غصونـه فـى مائهـا ... فكأنمـا هـو معصـم منقـوش

ومن ملحه:

يـاحبذا النهـر الـذى امواجـه ... تسبى العقول بحسـن مـا تبديـه

فـى الحب أبلق غـير أن عيوننـا ... إذ لاحظتـه ترى الحداتـق فيـه[2]

وقال محيى الدين قرناص:

فديتـك إن روضتنـا تجدهـا ... تميـل إلـى لقـائك كـالصدور

يعـانقك القضيـب بهـا سـرورًا ... ويخفـق فرحـة قلـب الغديـر

ومن لطائفه:

ولمـا تبـدى النهـر عنـد عشـية ... والروض يخضع للصبا والشَّمال[3]

عاينتـه مثـل الحسـام وظلُّـه ... مثل الصدى والرشح مثل الصيقل[4]

وقال رحمه الله:

ياحسـنه مـن جـدول متدفـق ... يلهى برونق حسنه مـن أبصـرا

مـازلت أعـوذه عيونًـا حولـه ... خوفًـا عليـه أن يصـاب فيعـثرا

فـأبى وزاد تماديًـا فـى جريـه ... حتـى هـوى مـن شـاهق فتكسـرا

---

(١) هريش: أى يثير الجدل والصراع بين الناس. انظر: القاموس المحيط، مادة [هرش].

(٢) أبلق: هو ما كان فى لونه سواد وبياض. انظر: القاموس المحيط، مادة [بلق].

(٣) الصبا: ريح تأتى من ناحية الشرق. الشمال: ريح تأتى من ناحية الشمال. انظر: القاموس المحيط، مادة [صبا]، [شمل].

(٤) الصيقل: الشىء المصقول اللامع. انظر: القاموس المحيط، مادة [صقل].

obeikandl.com

ولابن قرناص الحموى:

سرب النسيم جلا الغصون بلطفه ... لما أتاها وهى فى أطرافها
ورمى بها نحو الغدير فضمها ... من خوفه فى صدره وجَرى بها

ومما قيل فى النهر عند الأصيل:

النهرُ قد رقتْ غلالةُ صبغِهِ ... وعليه من ذهب الأصيل طراز
تترقوق الأمواج فيه كأنما ... عكن الخصور تهزها الأعجاز

ولبعضهم:

وروضة قال لنا نهدُها ... معاتبًا إذ رقّ للشاربِ
أكونُ فى خدمتكم جاريًا ... ويضحكُ الزهرُ على شاربى

وما أحسن ما قاله بعضهم:

نديمى ماس الآس فى سندسيهِ ... وأظهرَ ما أخفى لنا من حليّه
ولاح بجيد الغصن والصبحُ طالعٌ ... من الطلّ عقدٌ لاح فى جوهريه
وألقى الصخر فى فضه النهر نثره ... فأثرى الثرى بالنثر من عسجديه[1]
هو السيف إن يصداه ظل غصونَهُ ... تولى شعاعُ الشمس صقلَ صديهِ

ولابن النبيه عفى الله عنه قوله:

والنهرُ خدٌ بالشعاعِ مورَّد ... قد دب فيه عِذارُه للبان[2]
والماءُ فى سوقِ الغصونِ خلاخلٌ ... من فضةٍ والزهرُ كالتيجان

ذكر بساتينها وماحولها: فيأتى ذكرها فى الأزهار وهى كثيرة جدًا.

قيل: تبلغ نحو خمسة عشر ألفًا.

وأما ذكر الأزهار فله فائدة؛ فإنه لا يخلو من ذكرها فائدة من نحو خاصة، و مضرة، أو بعددهما ألوان، وخصوصًا تغزل الشعراء بها.

---

(١) عسجديه: هى ركاب الملوك المزينة بالدرر والجواهر. انظر: القاموس المحيط، مادة [عسج].

(٢) عذاره: خصلة الشعر التى تحاذى الأذن. انظر: القاموس المحيط، مادة [عذر].

فصل
المدارس

ذكر المدارس: من المشاهير ومايلحقها من الخوانق، ومن الأجمال، والاختصار: الدلانيه بالصالحية، والماردانية، والعمرية، والضيائية، والعلمية، والناصرية، والباسطية، والركنية المحاسنية، والقيمرية، والحافظية، والشبلية، والحامية الأشرفية، والمرشدية النظامية، الخانقاه الحاجبية، الإبراهمية المقدمية، القلانسية، الأرصدية، الأرمدية الغربية، الأرمدية الشرقية، العينية البدرانية، الأرابكية المعظمية، الخانقاه الفرنسية، الخانقاه الأهرمزية المنظور بة الجهار كسينه، الصارمية الترازية، الخانقاه المسرفية، الأخميمية الزاهرية، الجمالية، التهامية، الخانقاه، الخيلانية، اليعمورية، الصاحبية، العمادية، الأستدارية، البزورية، الحنيفية، المرشدية، الخديجية، الرحبية، الأشرفية، الناصلية.

وبالربوة: المنبجية على قناطر أربع درس بها العينى الصالحى، وكمال بن طولون تلميذه شرقى دار العدل، والآن لا أثر لها ،ولعلها على بردى.

قال ابن طولون[1]: وكان بابها من جدار السوق الكبير لا الصغير، فعليه كان السوق من عند الشورى وبردى، وكانت القناطر على بردى من غير شك، وكان يطل على بردى السلعوسية، وهى عمارة بديعة بالبلاط الأبلق، وبركة ماء، وواجهة عظيمة من الحجر الملون مطلة على نهر بردى، ولعله المنبجيه كانت على نهر بردى كالجامع المعلق التفنسية، القرصية، الكمدوسية، النورية، التنكزية، المصابنية، المقعدية، الأسدية، الأصفهانية، الأقبالية، الأمجدية، الأكزية، الأمينية، البدرائية، البهنسية، النقوية، الجاروخية، الجلجية، الخنصية، الخليلية، الرماغية، الدولعية، المركية، الجوانية الشامية، الجوانية الشامية البرانية، الشاهينية، الشرهنية الصالحية، الصارمية، الطيبية الظاهرية، الطبرنية الظاهرية، الجوانية العزيزية، الجوانية العذراوية، العادلية الكبرى، الظاهرية البرانية، الفارسية، الفخرية، الفلكية، القلجية، القوصية، القواسية، الفتحية،

---

(١) انظر: تاريخ الصالحية (١/١٦٥).

القيمرية، الكروسية، المجاهدية، الكلاسية، الناصرية الجوانية المنكلاسية المجاهدية، البرانية الناصرية، الجوانية، النجيبية، الأسدية، البدرية، الإقبالية المباصية الجلالية، الجقمقية، الجوهرية، الخاتونية البرانية، الخاتونية بمحلة حجر الذهب، الدماغية الركانية، الذنجارية، الشيبانية من الخوانق الصادية لصيق الأموى، الطوفانية، الطومانية مقابل العصرونية المقر خشاهية، القجماسية، القصاعية، الخانقاه الأحمدية، المعينية، القيمازية، المنجكية، النورية الكبرى، النورية الصغرى، المالكية البراهنية، الصمصانية، القلاصية، الجوزية، الجاموسية، الجتنلية، التنوخية، المسمارية، الصدرية، المنجانية، الدخوارية، اللبودية، الدنشرية، الخوانق الأسدية، السميساطية الأسدية. أيضًا الليمانية اللجكية، الإمكافية، الخانقاه الشبلية، العزية، الخانقاه الخامية الخاتونية الزوزانية، العكرانية الداودية اليوسية من الخوانق، الشناسية، الرهنية الشومانية، الطواوسية، الخانقاه الكومانية، المنبجية النحاسية، النجمية النهرية، الطوويسية الخانقاه، المدرسة الفلكية، المدرسة الطالوتية، الحررية، الأفريدونية التخمية، الجندرية الاكزية، السمرقندية، الأصفهانية، المؤيدية، والبيرمية، والزنجيلية، التفراتية، الوطيئية الطيبية بثلاث ياءات من تحت وغير ذلك وأكثر والله أعلم.

وأما الزوايا والمساجد فلم نذكرها لكثرتها.

obeikandl.com

فصل
جـوامعهـــا

ذكر مشاهير جوامعها: السليمية بالصالحية، الخاتونيـة، الجـامع الجديـد، المظفرى، المارداني‌ة، الحاجبية، العيشية، النيربية بها أيضًا الحاجبية بها الجـامع البرديكى، المنجكى الميدانى، المنجكى بالسـمعة الدرويشـية، السـنانية، المراديـة، الصابوفية السباهية ،الدقاق بمحلة القبيبـات، السقيفة، المزانـى، وجـامع القـرب، جامع خلخان، والآن خراب .

القعاطلة ليلبغا تكزباى، جامع ابن الرفاعى العبديـة عند خـان الباشـا الشـامية الأشرفية أعنى –التوبة– جامع الجوزة عند العونية للسليمانية، جامع التوروزى الحيواطية، جامع البزورى، جـامع المسـاوت، جـامع بنـى أميـة، جـامع المبروم خراب، جامع صالح أغـا، جامع حسان، جـامع الشيخ مـراد، جـامع النطاعيـة، جـامع الحشـر، جـامع الأغـا بالمناخليـة، الجـامع النـورى بالقلعـة، جـامع جـراج بالقربة، جامع المصلى، كلها خطـب، والنحاسية، والأفرميـة خـرب، والعيشـية، والنيرب، والريحاوى أعين الروم، والنحاس بالصالحية، وجامع الركنية وبطلت من زمان، وبالشرف: جامع فى الأولى والأعلى والله أعلم.

ومـن المنتزهـات التـى كـانت سـابقًا: محلـة الشـبلية، وبهـا دار السـبط ابـن الجوزى وغيره، وحدها إلى غيضة أبى المزلق ،وفيه حمام، وحوانيـت ولصيـق الحمام حانوت مسكفانى.

قال الحافظ ابن عبد الهادى: وأدركـت علـى بـاب الحمـام حانوتـا معدًّا لبيـع العدس المطبـوخ يطلبونـه مـن الشـام، والطريـق متصـل إلـى دمشـق بالنـاس، والعمائر، والحوانيت، وخرب ذلك فى زماننا وزمانه فى عهد الثمانمائة.

قال: وحارة مقر، وهى محلة طاحون الشـنان، وهـى محلـة عظيمـة حتـى إنَّ فيها بيوت الكبراء ؛ مثل بيت ترتمر.

قـال: وأدركـت السـبع قاعـات، وهـى عـامرة، وكـان عنـد الطـاحون حمـام، ومسجد، ومئذنة، وتسمى محلة المنطور.

قال ابن عبد الهـادى: وكـان بهـا دار الحافظـة المحدثـة كريمـة، وتغـزل بهـا الشعراء القدماء، وأما السهم: فتقدم ذكره.

ومحلة جامع النحاس شرقى الركنية، ومحلة الركنية، والآن خراب، وقريب منها محلة الزنيبية والصاحبية.

ويقال لها: الخميسات، وبهما سوق، ولكن الخراب أغلب .

وأما محلة قصر اللباب، وتقول العامة: قصر اللبان.

قال ابن عبد الهادى: أدركت بها جماعة من جملتهم بنوطبيخ .

وقال فى كتابه: [**وقف الشبلية**]: إن حدها أى -الشبلية- التربة والشرقى الجرن اسم بستان، لأنه نبت من غير زراعة، وآخرتها مقرًا.

قال ابن عبد الهادى: ومحلة مقرا ؛ أدركنا أثارها، ومنها السبع قاعات، ودور كبار عليها آثار النعم، والله أعلم .

وكان شرقى الطاحون دار جديدة ،وفيها حمام، وهى متسعة، وكان باقيًا بها بيت الذهبى، وبيت الصائغ، وبيت سديد وغير ذلك، وهذه كلها مسكونة استقضى الخراب جميعها عليها ؛ فسبحانه وتعالى.

ومن المنتزهات المباركة: سفح قاسيون[1]، وقد ورد آثار فيه كثيرة عن كعب.

وروى منبه قال: وفيه آثار قديمة، وأكثر العلماء كانت توصى بالدفن فيه.

وقيل فى كتب السابقين: تسمى هذا المحل بالفراديس، وفيه من العلماء والأولياء، والأنبياء مالا يحصى .

وأما العلماء فمن الأجلاء والأعلام مالا يُعد مثل: ابن قدامة، موفق الدين، وقبره ظاهر يزار، وأبى عمر بن قدامة، وكذلك كان ظاهرًا وخفى الآن، والشيخ ابن مالك، والسبط ابن الجوزى صاحب مرآة الزمان، والقاضى ابن خلكان، والإمام الشرفى الحجاوى صاحب الإقناع فى مذهب الحنابلة، والقاضى على المدينى المرداوى صاحب "شرح المقنع"، والقاضى ابن مفلح صاحب "الفروع"، وابن ابنه صاحب "الممتع" شارح "المقنع"، والعينى الحنفى الصالحى ،والحافظ ابن العارى، والقاضى ابن المنجا شرقى الداودية، وشيخ الإسلام الشويكى الكبير، والسيف الأحمدى، والفخر البخارى، وابن قندس الحنبلى، والصلاح بن عمر، والشمس ابن عمر، والقاضى سليمان بن حمزة ،والقاضى ابن عبادة،

---

(١) سفح قاسيون: هو جبل مشرف على مدينة دمشق، فيه عدة آثار للأنبياء، لذلك فهو جبل مقدس، وفيه أيضًا مقبرة آل الصلاح. انظر: معجم البلدان [٤/٣٣٥].

والشيخ عبد القادر العسكرى ،والشهاب العسكرى، والقاضى ابن الحبال، والحافظ ابن عبد الهادى جمال الدين يوسف المقدسى، وأكثرهم من الحفاظ والمحدثين.

ومن الأولياء: سلطان العارفين ابن عربى، والحرير الصوفى، والشيخ العمرى بالجسر صاحب الديوان المشهور، والشيخ العرودك صاحب الديوان المشهور ،والشيخ الإمام صاحب الأحوال أبو بكر ابن قوام .

وأما ما فيه من أماكن الإجابة: المقام الذى يقال له: مغارة الدم[1]، والشيخ الأمير قيمر صاحب المدرسة بدمشق، والمارستان بالصالحية، ومقام أهل الكهف، ومقام الجوعية، وقبرابن قوام، وقبر الشيخ ركن الدين، ومقابله للشباك قبر الحافظ ابن المتين، وقريب من قبر الفارقى الشافعى.

وأما الزوايا: فإنها فيه لا تحصى والأزبكية خراب ماعدا زاوية الشيخ العرودك أبو بكر -قدّس الله سره-، فهو فى كل ليلة يصير فيها ذكر، وكان قبلها زاوية الداودى الولى المحدث صاحب الأوراد وولده شمالى الزاوية.

وقيل: إن الدعاء عند قبره مستجاب ،وولده المحدث شارح الأوراد وتربته المشهورة داخل الشباك الحديد وبطل الذكر منها لخراب تلك المحلة فى عصر الخمسين بعد الألف.

وفيه من العلماء شيخ النحاة ابن طولون عند الزاوية العجمية ،وهى من الزوايا المشهورة، والآن ليس إلا الجدار، وقريب منها الخوازمية للشيخ الولى الخوازمى ،والأنجبية كانت للشيخ محمد الأنجبى ،وكلها يقام فيها الأذكار والأوراد، وبطل ذلك، وسابقًا الصوابية، كانت زاوية، بها الشيخ محمد الصوابى وذكرها فى المدارس.

ومن العلماء: البهار بن الخضر الفقيه المحدث، ولد ابن تيمية المحدث، والحافظ ابن المحب شارح البخارى، والعارف المحدث الحافظ عبد الرحمن ابن داود الحنبلى، وغير ذلك من الأعلام مما لا يحصى .

وأما جوامع الخطبة بها الآن: فالجامع المظفرى، والمحمدية، والسليمية، والخاتونية، والماردانية بالجسر الأبيض.

---

(١) مغارة الدم: قرية بدمشق، تقع فى محلة الصالحية. انظر: معجم البلدان (٥٢٧/٢).

محلات الشام :

وأما محلات الشام العامرة: تقدم ذكر الصالحية التى من زمن أبى عمر المقدسى ،ومحلة الجسر الأبيض، وقبلى دمشق الميدان، وهو كثير الزحام بالناس عامر جدًا، وأما محلة برج الروس إلى عند العونية فصار غالبه خرابًا، ومحلة الربوة، وأسواقها كلها غاصة بالناس.

وأما الصوايح[1]: بدمشق فأعظمها السنانية، ثم باب البريد، ثم المناخلية، ثم العمارة، ثم الشاغور ،وغير ذلك لا يُعد ؛ لأنه لا يبلغ فى الكثرة ذلك، ومئذنة الشحم، لكن ليست مثلها، وقد تغزل فيه الشعراء قديمًا وحديثًا.

وما أحسن قول الأديب إبراهيم حلبى السفرجلانى الشافعى[2]**:**

يا صاحبى أنخ المطـ ... ـىّ بقايسون سقاه وادق
وتضاحكتْ فى تربتيهِ ... قبورُ أزهارِ الحدائق
ولقدْ كرعنَا فيهما ... فى موردِ العشاقِ رائق
ونزلت روضًا اينعتْ ... ثمراتُهُ بالحسنِ فائق
وشممت من عرف الخزا ... مى ما يطيب لكل ناشق
ونعمتُ فيه بعارضِ الـ ... ـرحانِ فى خيم الشقائق

وله عُفِى عنه قوله:

نظر البنفسجُ فى الشقيق مؤثرًا ... فارتاع حتّى اتهل ماء جماله
فغدا يرضع دره ياقوته ... ويزيح أنجم بدره بهلا له

ومما يتعلق بالسفح محازيًا قولى:

سقاه من قاسون وادق ... وكساهُ تيجان الشقائق
وكساه حلة سندس ... قَدْحلُّها برد ووادق[3]
فلكم رشفنا فيه صفو المـ ... ـزن فى كأس العقائق

---

(١) الصوايح: من صوح، وهو: ارتفاع الصوت، والمقصود: المبانى العالية مثل المآذن. وتستخدم لرفع الآذان، والنداء للجهاد، وغير ذلك من الأمور الهامة.

(٢) إبراهيم حلى السفرجلانى، هو: ابن محمد بن إبراهيم بن عبد الكريم، الدمشقى، الشافعى، شاعر وأديب، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (١١٢هـ). انظر: معجم المؤلفين (٥٥/١).

(٣) الوادق: المطر. انظر: القاموس المحيط، مادة [ودق].

ولكم علونا فيه من نشز ترى طرف المشارق
لم ألق بهجته ولا ألقى كموطنه الشواهق
لازال ريان الرُبا وعليه دوم الدّهر بارق

وله أيضًا:

أفنى فؤادى الغرام والكمد وعيلَ صبرى وخاننى الجَلَدُ
وبت أرعى النجوم مرتقبًا حتى كأن الهرير يرتصد
من أجل بدر أقله غصن يحلو به فوق غصنه الميدُ[1]
يكاد من شدة اللطافة أن ينضم منه النطاق ينعقد
شويدن لو مشى على كبدى لما أحسَّ بمشيه الكبد[2]

ومن محاسن الصالحية: قبة النصر على رأس الجبل، وهو مكان نزيه مطل جدًا لا أعلى منه، وهى قبة لها ثلاثة أبواب، وشباكان بينهما محراب مكتوب عليه (الله حسبنا)، أنشأها الملك الناصر رحمه الله، يُرى منها جميع الشام ونواحيها، والأنهار كخيوط الفضة، وهى فوق مغائر شداد، والناس يخرجون إليها للنزهة، ويتعجبون من زيادة العلو والإشراف، ولها ثلاثة طرق يصعد إليها منها.

وقد ذكر القاضى حسين بن العدوى الشافعى قصيدة رقيقه لطيفه وهى قوله:

وليل أدرنا فضل قاسونَ بيننا فكادت قلوب السامعينَ تطيرُ
فلم ندر إلا الفجر صار دليلنا إلى سفحه والسفح فيه نفير
وفينا هداة للطريق وقادة لهم كل فضل فى الورى وصدور
فسرنا فلا والله لم ندر بالذى قطعناه بعد المشى كيف يصير
ومنذ ركبنا الجو حتى كأننا سماء نجوم والسَّحاب تَسير
فلما وصلنا المستغاث أغاثنا به الغيث حتى غوثنا لمطير
ففزنا وكل نال ما كان ناويًا وفزنا بوقت حسنه تشهير
إلى أن هبطنا قبة الملك الذى تسمى بنصر مُذْ أعان نصير
رأينا بها عقد الثريا معلقًا وعين الدرارى النيرات تسير[3]

---

(١) الميد: المائل. انظر: القاموس المحيط، مادة [ميد].

(٢) شويدن؛ تصغير شادن: وهو ولد الظبى. انظر: القاموس المحيط، مادة [شدن].

(٣) عين الدرارى؛ جمع الدرى: وهو الكوكب المضىء. انظر: القاموس المحيط، مادة [درر].

فلم أر برجًا قبله حل منزلاً تشير إليه الناس وهو يشير
فأعجب شيء أن تراها مقيمة تراها بنات النعش وهى تسير
وعدنا فحيا ناحيًا فضل سجها بريح لها وقع الغمام صَرير
إلى أن رمتنا بعد عالى مكاننا إلى مغرِ منها المقام غرور
وجئنا حمانا مطمئنين آنفا على أن مرقى المكرمات عسير

وهى من المحاسن، ومن محاسن بيت لهيا[1]:

قال ابن المزلق: ومن محاسن دمشق والعنابة، وهو مكان مبارك يقال: حواء أقامت فيه، نقل المؤرخون أن حواء مكثت فى بيت لهيا، وآدم فى بيت الأبيان، وهابيل فى سطرا، وقابيل فى قونية، وكان هابيل صاحب غنم، وقابيل صاحب زرع، وقصتهما مشهورة ذكرها الله تعالى فى القرآن.

وأما العنابة: فهى كما قال ابن المزلق: محلة عظيمة مشهورة ،ويأتى ما ذكر من مدح العناب فى ذكر أشجار دمشق فى آخر الكتاب .

ومن محاسن الشام: سطرا[2].

وفيه يقول ابن خطيب داريًا -رحمه الله تعالى-:

خليلى إن وافيتما الشام بكرة وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا وأقرأ عنّى كتابًا كتبته بدمعى لكم مقرًا ولا تنسيا سطرا

وما أحسن ما قاله القاضى ابن عينى[3]:

ألاليت شعرى هل أبيتن ليلة وظلك يا شقرا على ظليلُ
دمشق فلى شوق إليها مبرّح وإن لجّ واشٍ أو ألحّ عذول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصَحَّ نسيمُ الروض وهو عليل
بلادبها الحصباء در وتربها عبير وأنفاسُ الشمال شمول

والحاصل كلها تغزل فيها الشعراء قديمًا وحديثًا.

---

(١) بيت لهيا: قرية مشهورة بغوطة دمشق. انظر: معجم البلدان (٦١٩/١).
(٢) سطرا: من قرى دمشق وبها كثير من منتزهات الغوطة. انظر: معجم البلدان (٢٤٨/٣).
(٣) القاضى ابن عينى، هو: عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد، الحنفى، زين الدين، له اشتغال بالأدب والنحو، بجانب علم الأصول، من آثاره: شرح الألفية لابن مالك فى النحو، شرح المنار فى الفقه، توفى سنة (٨٩٣هـ). انظر: معجم المؤلفين (٨٥/٢).

قال ابن المزلق: ومنها منتزه اليلكى يجتمع الناس فيه أيام السفرجل ، وهو مزهر ويسيبون الماء تحته، ويوقدون فى ظلمة الشهر قشور البيض كالمرج، ويعلقون قشور النارنج فى الأشجار مشعولة، ويفرقون الخام فى البستان الحاجب، ويقطعون أوقات من اللذة.

قال الشيخ علاء الدين بن الشرف المارديني:

انظرْ إلى يلكٍ أزهتْ ازاهرُهُ ... فرؤيتُهُ بالزهور قد تعيَّنتْ

أشرقتْ الأرضُ بنورِ ربِّها ... وأخذت زخرفها وازينت

قال ابن المزلق وانشدنى بدر الدين:

للهِ من يلَكٍ بديع حسنُه ... قد ضمّ شَمْلى بالذى أهواه

مازال يفرشُ لى بساطًا أخضرًا ... فرعى الإ له رياضَه وكَلاه

وفيه يقول أبن قرناص:

ويلكُ بدرهُ فيه منارةُ ... يطيبُ بها الندامى والمدامُ[1]

ويا نورَ المتيم إذ تغنتْ ... حمائمُهُ ويسقيكَ الغَمَامُ

ومن قوله فيه:

قد أتينا نفى زيارة يلَكٍ ... فحباتَا بالجودِ والإكرام

ناولتنا أيدى الغصون ثمارًا ... أخرجتها لنا من الأكمام

ومن المحاسن: غيضة السلطان وتسمى غيضة حمد، وقفها على الجامع، وهو مغض من قديم الأزمان، مشتبكة، وفى أطرافها مروج يجلس عندها ،ولا يدخل لداخلها إنسان من كثرة المهالك الجوانية، ويخرجون إليها للنزهة وصيد السمك.

ومن محاسن الشام، الغوطة[2]:

وهى، كما قال القزوينى[3]: كورة حقيقتها دمشق، وهى كثيرة المياه خضرة الأشجار، ومتجاوبة الأطيار، مونقة الأزهار، ملتفة الأغصان، مخضرة الجنان، استدارتها ثمانية عشر ميلاً، كلها بساتين، وقصور، يحيط بها جبال عالية من

---

(١) المدام: الخمر. انظر: القاموس المحيط، مادة [دام].

(٢) الغوطة: بساتين دمشق، وتجرى فيها عدة أنهار، منها: نهر بردى وتعد من أنزه بلاد الدنيا وأحسنها. انظر: معجم البلدان (٢٤٨/٤).

(٣) انظر: آثار العباد، للقزوينى ص٢٠٩ .

جميع جهاتها ،ومياهها خارجة من تلك الجبال، ويمتد فى الفوة عدة أنهار، وينصب فاضلها فى أجمة هناك.

والغوطة كلها أنهار وأشجار متصلة قل ما يوجد بها مزارع، وهى أنزه بلاد الله وأحسنها.

قال أبو بكر الخوارزمى[1]: وهى أنزه أماكن الدُنيا.

وقال القزوينى: أخذت الجهات الثلاث التى هى صغد سمرقند[2]، والأبلة[3]، وغوطة دمشق ودرتها كلها؛ فرأيت الغوطة أحسن منهما بكثير.

قال فى آثار العباد: ومن محاسن الشام: خزين الثلج بقرية من قرى الشام، يقال لها: منين، يخزنوه من العام إلى العام، ويحمل منه للقاهرة، وماء يسكن وجع الأسنان.

ولابن عباد قوله فيه:

احمل الثلج فانبسط للسرور ... وبشرب الصغير بعد الكبير

فكارب الماء صاهرت ... الأرض وصار النثار من كافور

وأخذه أحمد بن على العلوى فقال:

هواك من الدُنيا مضرك والذى ... إليك لمشتاق كجفن إلى الغَمض

فزرنى وبادر يوم ثلج كأنه ... نماتم كافور نثرن على الأرض

ومن محاسن أبى الفتح:

قد نظمنا السرور فى عِقْدِ أُنس ... وجعلنا الزمان للحب سلكا

وشربنا مدامةً وجعلنا ... للفتى فيه رشداً ونسكاً

فكأن المياه تنثر كافو ... راً علينا ونحن نفتُتُ مسكاً

---

(١) أبو بكر الخوارزمى، هو: محمد بن موسى، أبو عبد الله، مؤرخ، رياضى، فلكى، كان يتولى خزانة كتب الحكمة للمأمون، من آثاره: تقويم البلدان، توفى سنة (٢٣٥هـ). انظر: الفهرست (٢٧٤/١) معجم المؤلفين (٧٤٢/٣).

(٢) سمرقند: بلد مشهور من بلاد ما وراء النهر، قيل: بناها ذو القرنين. انظر: معجم البلدان (٢٧٩/٣).

(٣) الأبلة: بلدة على شاطىء دجلة، تتبع مدينة البصرة، وقيل عنها: من جنان الأرض. انظر: معجم البلدان (٩٨/١).

أخذه ظافر الحداد[1]:

ويـــــوم ضـــــاحكٍ بيكـــــى ضعيـــــفُ معـــــاقِدِ المِلْـــــكِ

كـــــأن الريـــــح تنـــــثره علـــــى الأرض وفـــــى وشْـــــك

وينبت فى الثلج الريـاس يسكن الحرارة، ويقوى المعدة، ولا ينبت إلا فى الثلج، وهو نافع من الإسهال، وهو فى جبال الثلج أمريـاريس، والثلج محمود للهضم لكن يهيج السعال، ومضر للمعدة، ومع ضرورة شربه قليلاً قليلاً يصلح للأمزجة الحارة، وهو يطلق البطن ثم يعقله.

ومن محاسن دمشق، المرج : وأوله الوادى التحتانى ،وآخره البحرة.

ويقال: إنه يشتمل على ثلاثمائة قرية وستين قرية، تزرع فيه الحبوب والغالب الشعير.

وفيه يقول ظافر الحداد:

كـأنّ فـى سـنابل حـب الحديـد وقـد سـارقته مـن ابّاتهـا

كبـابيس مطفـورة زينـت وأرخـى أفـاضل خيطاتهـا

ومن محاسن السلامى قوله[2]:

يا حبـذا سنبلة تبدو لعينـى المبصـرة

كأنهـا لـؤلـؤة مطفـورة مـن عنبرة

والبحرة: يصب إليها مياه دمشق كلها، وبها مراكب صغار، والسمك والطيور فيها كثيرة، ويقصدونها لصيد السمك، وهى عميقة جداً، ولا يعلم قرارها إلاّ اللّه كذا ذكر ابن المزلق.

ومن محاسن دمشق: الجامع الشريف الأموى: ولا يوجد فى أقطار الأرض مثله.

قال فى الدارس[3]: وهو أول جامع صليت فيه الجمعة فى دمشق، وفيه مدفن رأس سيدى يحيى عليه السلام، ونبى الله شيث عليهما السلام.

---

(١) ظافر الحداد، هو: ابن القاسم بن منصور، الجذامى، أبو بصر، شاعر، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٥٢٩هـ). انظر: وفيات الأعيان (٢٤١/١)، الأعلام (٢٣٦/٣).

(٢) السلامى، هو: محمد بن عبد الله بن محمد، المخزومى، القرشى، أبو الحسن، من شعراء العراق المشهورين، كان جليسًا للصاحب بن عباد، من آثاره: ديوان شعر، توفى سنة (٣٩٣هـ). انظر: وفيات الأعيان (٥٢٤/١)، الأعلام (٢٢٦/٦).

(٣) انظر: الدارس (٧٥/١).

قيل: إن الصلاة تتضاعف فيه بثلاثين صلاة، وهو منقول عن العينى -رحمه الله تعالى-.

وعن يزيدِ بن مغيرة قال: أربعة جبال مقدسة بين يدى الله تعالى: جبل طور سيناء، وجبل طور زينا، وجبل طورتيما، وجبل طورتينا،

فطور سيناء: الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام.

وطور تيما: مكة المشرفة.

وطور زينا: بيت المقدس .

وطور تينا: مسجد دمشق.

وعن قتادة رضي الله عنه قال: أقسم الله تعالى بمساجد أربعة؛ فَالتِين؛ مسجد دمشق، والزيتون؛ مسجد بيت المقدس، وطور سنين؛ طور موسى عليه الصلاة والسلام الذى كلمه الله عليه، وهذا البلد الأمين؛ مكة شرفها الله تعالى.

وذكر جماعة من الأمويين أنهم أدركوا فى مسجد دمشق تينًا.

قيل: وكانت فى المواضع التى فى الصحن بالبلاط الكبار المدورة كالرحا، وهو من بناء الملك الجليل الكبير الوليد بن عبد الملك بن مروان، ودولته كانت عشرة أعوام، وكان مهابًا شجاعًا، وكان الجامع نصفه كنيسة، ونصفه الآخر جامعاً، والذى فيه محراب الصحابة كان الجامع، فأرضى الوليد النصارى بعدة كنائس فرضوا، ثم هدمه، وحيطانه الأربعة، وأنشأ فيه القبة، والقناطر، وحلاّه بالذهب، وجعل سلاسله منه، والأستار من الحرير، وبقى العمل فيه سبع سنين، وكان يعمل فيه اثنا عشر مرخمًا، وغرم عليه من الدنانير المصرية مائة قنطار وأربعة وأربعين قنطاراً بالدمشقى، حتى صيره نزهة الدنيا، وأمر نائبه على المدينة المنورة ببناء مسجد النبى صلى الله عليه وسلم، وتوسعته وزخرفته، وهو ابن عمر بن عبد العزيز .

وقيل: أول من عمر جذر الجامع الأربعة: نبى الله هود عليه السلام.

وعن عمرو بن الدرفيس فى تفسير ﴿والتين﴾ : أنه مسجد دمشق ؛ كان له حديقة فيها تين لهود معدودة لمن يمر، وكان فيه أبنية وخبايا للنصارى، فهدمه

المسلمون حتى العمارة، حتى صار مرجه، وفيه أبنية ومذابح، ثم شرع فى بنائه بفكرة جيدة ،وجعل جدرانه كلها منقوشة بصفة سائر البلدان، صورها فى الجدران، ورتب شموعًا، واصطنع مجامر للنجوم على أعمدة، ووكل خدمة لذلك، وسبك سرجًا من نحاس، كل سراج يوضع فيه قنطار من الزيت.

وفى محراب الصحابة وضع حجرًا من البلور.

وقيل: درة يقوم نورها مكان المصباح، وأخذها الأمين ابن الرشيد لما طلبها، فسيرت إليه لبغداد.

وقال ابن عساكر: لما رآها ردها، ثم فقدت، وجعل مكانها برنية[1] من زجاج.

قال: وقد رأيتها ثم انكسرت بعد مدة، وبنى الوليد المنارة المسماة بالعروس.

قلت: وما أحسن ما قال القاضى الحسينى ابن العدوى الصالحى:

قاسوا حماة بجلق فأجبتهم هذا قياس باطل وحياتكم

فعروسُ جامع جلق ما مثلها شتان بين عروسنا وحماتكم

وجعل عدة من المصابيح توقد كل ليلة، ورتب ثلاثة نوبات كل نوبة أربعون وهى إلى الآن، والقبتان من بناء اليونان للناقوس والرصد.

وقيل: إن الشرقية احترقت فى سنة سبعمائة وأربعين، فنقضت، وجددت من أموال النصارى، لكونهم اتهموا بحريقها، وأقر بعضهم بذلك .

ويقال فى الركنين الشماليين: صومعتان كالمقابلة فيها خلوتان من فوق الأعمدة، موضوع فيها كتب الأوقاف ،ومقفل عليها بالحديد ،وفيه طلسمات للحيات والحشرات والعقرب والخنافس والعناكب والدبان والعصافير والوطوات.

قال ابن عساكر: وقد ذهب من ملك الأرصاد انتهى.

أقول: ولعل بعضها يأتى؛ لأن أشياء من ذلك توجد إلى الآن، ولىّ فى تعليق هذه المشارب الكبار المدهونة المزخرفة، ولعلها كانت أكثر لكن ذهب الأكثر، لتوالى محن دمشق .

---

(١) برنية : إناء كبير . انظر : القاموس المحيط ، مادة [برن] .

وإنها موضوع فيها شيء من الرصد ،وجعلت فى هذا الموضع حتى لا تنال بالأيدى ووقع له حريق من فتنه بين الدولة فى سنة أربعمائة ليلة النصف، ضربوا بارودًا على دار هناك مجاورة له، وأتى الحريق على سائره ودرست محاسنه، نقله فى الدارس[1].

وفتنة التيمورلنك[2]، فإنه غُيِرَتْ محاسنه وجعله مربطًا لخيول بعض دولته، وله سبعة أبواب كبار وبابان صغيران ؛ أبواب البريد، وأبواب جيرون، وباب الساعات ؛ فى حرمة قبلية، وسمى باب الساعات ؛ لأنه كان عمل فيه مكانًا تُعلم منه أوقات النهار، وهى شيء عليه عصافير وحية من نحاس وغراب ؛ فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصافير ،وصاح الغراب وسقطت فى كل مخصوص حصاة، وهو من عمل الرئيس أبى الفضل الحارثى الدمشقى المهندس[3]، وكان ماهرًا فى العلوم الرياضية، وبرع فى علم الفلك، والحساب، والتقسيمات، والهندسة، وعلم الهيئة، ونقش الرخام، وضرب الخيط، واشتغل بالطب حتى مهر، سمع الملقى، وأخذ عنه الحديث، ووضع كتابًا فى الحروب والسياسات والأدوية المفردة، ومقالة فى رؤية الهلال ،واختصر الأغانى، توفى فى الخماسية .

وذكره ابن أبى الحنفية فى تاريخ الأطباء: قال وكان مرضه بالإسهال كأفلاطون، ومات بدمشق، من الرؤساء بدمشق فى العلوم الرياضية ،وسكن دمشق لتحديد الساعات، وخيط الأوقات، وإدارة ساعة العنبرانية، وتحديد ما يفسد منها عند الخلل.

رضوان الخراسانى[4] مولده بدمشق، وأبوه من خراسان.

---

(١) انظر : الدارس، للنعيمى (٣٩/٢) .

(٢) فتنة التيمورلنك، المراد: غزو المغول لبلاد المسلمين .

(٣) انظر ترجمته: معجم المؤلفين (٩٤٢/٢) .

(٤) رضوان الخراسانى، هو: ابن محمد بن على بن رستم الساعاتى ، طبيب ، من الحكماء، فلكى، أديب، من آثاره: كتاب فى معرفة الساعات وللعمل بها، توفى سنة (٦٢٠هـ). انظر : عيون الأدباء (١٨٣/٢) معجم المؤلفين (٧٢١/١) .

ومحمد القيسرانى[1]: ومولده بعكا ، وله ديوان شعر، وهو فى عصر الأربعمائة، وسكن بحلب، ثم رجع للشام ،ومات فى الخماسية، وكان أمة فى الحساب والنجوم والهندسة والهيئة، وعلم المساحة، والميقات، والفلك، والإمام المتقن البارع أبو الحسن علاء الدين على ابن الشاطر[2] المشهور، وهو من الأوسى ينسب إلى ثابت الأنصارى الأوسى، صاحب الأسطرلاب، والبسيط الإمام المشهور، وكان له نظر على التوقيت بالجامع، وألّف الزيج[3] والكرة، وله الرسالة عليها، وعلم الخيط فى المزاول وتركيبها.

وأما الأسطرلاب: فهو قنطرة مقدار ثلث ذراع تدور أبدًا على حركات الفلك على أوضاع مخصوصة ليعلم منها الساعات المستوية والزمانية والمنحرفتان فى قبلة مئذنة العروس من وضعه والبسيط من وضعه فى الدور الفوقانى من مئذنة العروس يُعلم منه أوقات الرمال، وهذا ممالم يسبق إليه كالمزولة، ولكن المزولة لا تكفى فى ذلك، فجعل البسيط وهو إلى الآن، وكانت دائرة داخل الفراديس، ومولده فى عصر التسعمائه انتهى .

قلت: ومن المتأخرين الماهرين محمد الصالحى الهلالى[4]، كان من البارعين فى علم الفلك وغيره، وله شعر جيد، وله زيج أكبر من زيج ابن الشاطر، ولكن زيج ابن الشاطر أشهر، وحضرت فى قراءة زيجه بقراءة الفاضل الشيخ محمد الحبال على الشيخ خليل شيخنا الموصلى، وقراءة رسالة الكرة له بقراءة صاحبنا الفاضل مولانا الشيخ إبراهيم الأكرمى[5] مع رفيقه الشيخ القاضى عبد الوهاب الصالحانى، وأيضًا عليه، وقرأت بالربع المجيب والمقنطر على محقق هذا الفن البارع يحيى جلبى العينى الشافعى، وقرأت رسالة الدرجة عليه بتمامها ولله الحمد.

---

(١) انظر ترجمته : الوافى ص٩١ ، معجم المؤلفين (٣/٧٥٠) .

(٢) انظر ترجمته : شذرات الذهب (٦/٢٥٢) ، معجم المؤلفين (٢/٣٨٩) .

(٣) الزيج : كتاب منه يحسب سير الكواكب ، ومنه يستخرج التقويم أى حساب الكواكب سنة بسنة . انظر : مفاتيح العلوم للخوارزمى ص١٢٧ .

(٤) انظر ترجمته : معجم المؤلفين (٣/٣٥٧) .

(٥) إبراهيم الأكرمى، هو: ابن محمد، الصالحى، أحد الشعراء، الأدباء، من أشاره: ديوان شعر، توفى سنة (١٠٤٧هـ). انظر: خلاصة الأثر (١/٣٩)، معجم المؤلفين (١/٢٥٨).

وكان مولانا بهى الدين الشيخ الحى الصالحى إمام السليمية فى زماننا، لم يكن أمهر منه فى مثل ذلك، وكان أُمَةً فى الحساب والفقه والنحو والحديث، وكان عليه مشارفة تولية جامع السليمية فى الصالحية مع الإمامة، وكان يقرأ الحديث للبخارى فى الأشهر الثلاثة، وتوفى بمكة سنه ستة، وألف تاريخًا سَماهُ [**مذاكرة الذهب فى حال مَنْ ذهب**]، وله رسالة بديعة فى تفسير آية: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص:١] استنبط فيها ذكر سائر الفرق المخالفة واعتقاداتها، أخذ بالشام عن المحدث ابن بلبان وغيره، وعبر عن أعلامها.

وقال فى الدارس[١]: بالجامع طلسمات لسائر الحشرات، معلقة بالجامع.

قلت: وهى إلى الآن، وإلى الأزل لا يوجد فيه العصفور، والزاغ، ولا البق، ولا البعوض، وفيه الفوارة أُقيمت فى الثلاثمائة .

وقال الأمير جعفر الملقب بقمر الدولة الكنانى يصفها وأجاد:

رأيت بالجامع المزبور معجزةً ... فى جلق قد كست أحدًا لها سمعًا

فوارها كلما فارت فرحت بها ... وماؤها فاض بالأنفاس فاندفعا

كأنها الكعبةُ العظمى فكلُّ فتًى ... من حيث قابل أبوابًا لها ركعًا

وفوارة جيرون[٢]: ففى عصر الأربعمائة خربت ليلة الجمعة لسبع خلون من ربيع الأول سنة أربعمائة، وماؤها من قصر حجاج قاله فى الدارس[٣].

قلت: وفى سنة إحدى عشرة ومائة وألف جدد إنشاءها مفخر الكبراء بدمشق عبد المعطى جلبى الفلاقنسى، فحمامها عظيم وعمر على حساب مال الجامع من ماله حتى يبقى له وذلك زمن توليته، وكان قبله أطباق لصيقة الذهبية، وكان هناك سويقة خرابًا تعد لبيع الثمين من العقيق مما يليق بالسَّناء، فلما خربت الذهبية فى سنة سبع ومائة وألف نودى على الطواقى التى كانت تلبسها النساء، وجدد موضع ذلك الحمام فى التاريخ السابق من ماله، وتحاسب به من مال

---

(١) انظر : الدارس (٢/٧٩) .

(٢) فوارة جيرون : انظر : معجم البلدان (٤/٣١٦) .

(٣) انظر : الدارس (٢/٦٩) .

الوقف، وجدد السوق خارج باب الفراديس، وكان دربه حوانيت الجامع المزبور، وقد أحسن فى ذلك -رحمه الله-، وتوفى السيد عبد المعطى جلبى المذكور سنة اثنين وعشرين ومائة وألف .

وأما المصاحف: فأكبرها بخط العلامة الحجينى الحنبلى، للكافل بدمشق سودون، وكان على كسرى مقابل باب المقصورة الشمالى، ورتب قارئًا وخادمًا بمعلوم، ويليه للمؤيد مثله مقابله على باب المقصورة.

وأما السلاسل على باب الجامع: فمن وضع السلطان العادل حتى لا تقحمه الخيول.

وفيه يقول القاضى ابن عنين الصالحى من قصيدة: **والمدينة قيدوها بالحديد**

وإنَّ الجامع بلط بعد دثور[1] بلاطه السابق المدهش؛ لأنه كان كله مفصصًا منقوشًا بأنواع عجيبة فى الستمائة، وفيها نصب محراب الحنابلة بالرواق الثالث من الحرم، وصلى فيه شيخ الإسلام موفق الدين بن قدامة، وتبعه الزكى المعظمى، ثم رفع فى السبعمائة، وعوضه بالغربى عند باب الزيادة كما عوضوا الحنفية عن محرابهم الذى كان فى الجانب الغربى بمحراب باب الزيادة بين محراب الحنابلة، والمقصورة حين جدد الحائط القبلى.

قال فى الدارس[2]: وكان المحاريب ماعدا الراتب كلها فى الرواقات بالمعازب، وفى الثمانمائة رسم أن يصلوا الحنابلة قبل الإمام الكبير، لأنه كان يحصل تشويش فى الصلاة، وتغيرت هذه القاعدة فى التسعمائة .

قلت: والترتيب الآن يصلى الظهر والعصر الشافعى أولاً، ثم الحنفى، ثم المالكى فى المقصورة، ثم الحنبلى فى المحراب فى المعزية القبلية التى تلى الباب القبلى أى؛ باب العنبرانية، والمغرب والعشاء لايصلى إلا الراتب، والمالكى فى المقصورة، ويصلى الناس بأئمة حسبية، والمغرب والعشاء

---

(١) أى بعد زوال آثاره .

(٢) انظر : الدارس (٢١٥/١) .

وفى الصبح ؛ فأول ما يصلى الصبح اليمانية بغلس[1]، ثم الشافعى، ثم المالكى، ثم الحنفى، ثم الحنبلى .

فالمالكى له أربع، والحنبلى ثلاث، والشافعى كذلك، والحنفى الخمسة ؛ فيصلى المالكى أربعًا، والحنفى الخمسة، والشافعى، والحنبلى ثلاث صلوات والله أعلم .

ولعلها منسوبة لمن كان باليمانية، وهو الرواق المشهور لا أنهم حنفية الآن بل شافعية، والغلس عند الشافعى أفضل.

وفيه المشاهد لكل واحد إمام:

المشهد الكمالى: لمولانا القاضى كمال الدين السهروردى، ويجلس فيه الحكام بعد صلاة الجمعة.

ومشهد المؤذنين: ويسمى مشهد عثمان.

وبعده مشهد النائب: وهو مشهد علىّ، وفى كل منهما بركة ماء جارٍ.

ومشهد عروة: وهو الشرقى.

ومشهد زين العابدين، ومشهد الطواشية خدام الجامع كطواشية حرم النبى فى المدينة صلى الله عليه وسلم، ومشهد باب الزيادة، وهو خراب، ولعله المسمى مشهد المحيا، ومشهد الجرن، ويقال له: مشهد أبى بكر، وفُتِحَ فى الثمانية، ومشهد عثمان جدد فى السبعين والثمانية، والآخر فى القرن والثمانية.

قال فى الدارس[2]: وفى الخمسمائة نقل من طبريا[3] مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى دمشق.

ذكره الذهبى فى تاريخ الشام قال: وأما بيع الكتب فلم يكن فى الكلاسة، بل بالبريد، ثم نقل إلى باب مئذنة العروس، ثم إلى داخل الكلاسة.

---

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل . انظر : القاموس المحيط ، مادة [غلس] .

(٢) انظر : الدارس (١٩٦/١) .

(٣) طبريا : بلدة من أعمال الأردن، تطل على بحيرة طبرية المعروفة، ويطل عليها جبل الطور . انظر : معجم البلدان (١٩/٤) .

قلت: وفى زمن ناصف باشا وزير دمشق نقل مصحفًا عثمانيًا كان فى بصرى مسجد عتيق، وذلك لما كان تواجر حوران، فأمر بحمله إلى مسجد دمشق فحمل وجيىء به للمقصورة، ورتب له خادمًا وهو إلى الآن، وذلك سنة ثلاث وعشرين وألف، وما أحسن ما فعل، واحترقت المئذنة الغربية فى الثمانمائة من حربٍ حصلت، ثم جددت وفيها عمل درابزين لمئذنة العروس، ولما وقعت فتنة تيمورلنك عطلت وقوف الجامع، فطلبوا الإمرة، وصار فتنة فشكوا وقوف الحال.

فقال الأمير: اتركوا شهرًا وخذوا شهرًا، وفى فتنة الناصر كذلك، ولما ملك دمشق الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل كان وزيره ابن الدولة عبد السلام، فعمل طلسمًا للحمَام -بالتخفيف- وصح فلا تدخله واحدة. قاله فى الدارس[1].

قلت: لعله خرب، ففى هذه الأعصار كثير فيه جدًا.

وأما الحمام: فلا يرى فيه وهذا من العجب وبطل.

قلت: وفى عصر المائة والألف ورد لدمشق الإمام الجليل الكبير الحافظ المحدث محمد بن سليمان المغربى، وكان إمامًا فى العلوم العقلية، والنقلية، والهيئة، والهندسة، والفلك، والرصد؛ فأراد أن يرصد الزلقط، والدبور فى دمشق لا يرى إلا فيها، وعمل تمثيله فى كرات من رصاص، ثم جيىء إليه ليكتب عليه، وكان متمرضًا بمرض الموت، وتوفى سنة، ولم يكمله، ودفن بالسفح من قاسون .

قلت: وقد عمل أبو البقاء الناصر الصالحى رصدًا للناموس بالصالحية بمحلته، ودخلته، وهى إلى الأن لا ترى، ولا يقرص أحد كذا أخبرنى من أدركه من القدماء، وذلك مشاهد.

وأحرقت الشرقية فى السبعمائة ،وأقامت ثمانية أشهر خرابًا، ثم تولى عمارتها الرشيد الصالحى نائب المملكة، وفى الثمانية رفعت جميع الخزائن،

---

(١) انظر : الدارس (٢٠٣/١) .

والصناديق من الجامع فى ولاية أياز الجراكسى، وكانت قريبًا من ثلاثمائة خزانة ومقصورة، حتى وجدوا فيها قوارير البول، ووسع الجامع، ومنع كثيرون من المجاورين، وخرج على الجامع نحو عشرين ألفا من المهندمين ترخمه، وجدد مشهد زين العابدين ابن علىّ، وكان خرابًا، ولم يبق من المجاورين سوى واحد، وكان لكل من المجاورين موضعًا مقدار دورة واقتطعه، وعمل فيه صندوقًا حتى صار فيهم كأنه خان، وأمر بتجديد باب البريد وبلطه، ونقل الشماعين[1] إلى حوانيته التى فى الحائط، وكان قبل بها سوق الأكفانين، وكان بالجامع حواصل كثيرة للأمراء وغيرهم من خيم وغيرها ودف، فأمر بإزالتها ؛ فاتسع الجامع وزاد رونقه، هذا حين دخل الملك إسماعيل.

وأما الأسباع فكثيرة، وأما الأئمة فتسع، والسبع الكبير رجاله ثلاثمائة، وقيل: ثلاثون سبعًا منها للحنابلة، والمالكية.

والكوثرية: بعد العصر تجاه المقصورة فيه أربعمائة وعشرون نفرًا، وفيه ميعاد بالكلاسة للقاضى الفاضل.

والغزالية: وتعرف بالشيخ نصر المقدسى.

والأسدية، والمنجائية، والقوصية، والحنفية، والمقصورة الكبيرة عظيمة، والزاوية المالكية.

قال فى الدارس[2]: ولاشك من مفارقات الدنيا، ومن ثم قيل: رابع حرم، وفيه أثر عن النبى ﷺ أنه رابع حرم، ومن أراد أن يطلع على فضل الشام، فيطالع **(تاريخ الإسلام فى فضائل الشام)** للحافظ الذهبى، وكان نقوشه الرخام الأبيض المختم بالأزق وهو محلى فى سائره، وسقوفه مدهونة مزركشة، وتغيرت محاسن نقوشه، وفسدت أيام الحريق، وقصة التيمورلنك وغيرها، وكان فى دائرة نقوش سائر بلدان الدنيا كالهند والصين، وجميع الفواكه منقوشة بالفسيفساء الملونة، وهو شىء عجيب لم يُرَ مثله.

---

(١) الشمّاعين ، جمع الشمّاع : بائع الشمع .انظر : القاموس المحيط ، مادة [شمع] .

(٢) انظر : الدارس (٣٥/١) .

قال ابن المزلق: وطوله مائتا خطوة وخمس وثلاثون، ويكبر بالمرجع المغربى أربعة وعشرون مرجعًا، وهو يكبر مسجد النبى ﷺ، شمساتها الزجاجية الملونة مع الثلاث الكبار التى فى المقصورة أربع وسبعون.

قال: وينعكس شعاع الشمس بألوان غريبة من الحائط كالأرجوانى، والأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والمحراب من عجائب الدنيا وفيه أعمدة صفًا، ومحاريب صغار، نقشية مادية يحفها أسورة مفتولات بعضها أحمر، كأنه مرجان.

قال: وفيه ثلاث مقاصير:

مقصورة معاوية: وضعه فى الأمام طولها أربع وأربعون شبرًا، وعرضها نصفها.

وفيه مقصورة: من جهة الشرق.

والثالثة: بالجانب الغربى يدرس بها الحنفية .

وله أربعة أبواب :

القبلى: وهو الزيادة.

والشمالى: للناطقيين، والبريد، وجيرون.

والمغربى: دهاليز متسعة تفضى إلى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة.

قال ابن جبير: وللجامع أربع سقايات فى كل جهة سقاية، وأعظمها باب جيرون، مفروش بالبلاط بدرج عظيم، وبلاط عريض طويل، وهو خمسة أبواب مقوسة، لها شيد أعمدة فى جهة اليسارمشهد كبير فيه رأس سيدنا يحيى عليه السلام، وقد انتظم أمام البلاط درجة، وأنت داخل تنحدر عليها إلى الدهليز، وهى كالخندق العظيم يتصل إلى باب عظيم الارتفاع، فى لحد الحدرية أعمدة كالنخل الطوال، وكالأطواد طولا وفخامة، وكانت على الدهليز أعمدة كانت عليه شوارع مستديرة، بها حوانيت العطارين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة مستديرة فيها الحجر والسوق، وفى وسطه الحوض وأنبوب مزعج بقوة فيرتفع، أزيد عن قامته، وحوله أنابيب صغار، وعن يمين الخارج شبه غرفة، لها شبه طاق كبير مستدير فيه طير من صفر فى فمه بازين من صفر قائمين على

طاستين من صفر مثقوبتين، فتبصر البازين يمدان عنقيهما بالصفحتين إلى الطاستين، ويعيدان فاههما بسرعة، فتسمع لها دويا، فيعودان من الأثقاب إلى داخل الجدار إلى الغرفة، ويغلق الباب المعين بلوح من صفر فلا يزال كذلك حتى تنقضى الساعات، فتغلق الأبواب كلها، ثم تعود إلى حالتها الأولى، ولها تدبير أحزان القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنا عشرة دائرة من نحاس مخرمة، فى كل دائرة زجاجة، وخلف الزجاج مصباح يدور به، وتسمى الميقاتية على ترتيب مقدار الساعات، ولها مشارف انتهى.

وقلت: ومن عجائبه: أن أبوابه منها ما يدخل إليه بنزول، ومنها بطلوع.

الأول : كباب البريد.

والثانى: باب جيرون، وبقية الأبواب سوية، فتأمل.

وفيه: قبة النسر، وهى توازى الأطواد، وقبة صغيرة فى الشرق، والأخرى فى الغرب مصفحة بالرصاص، ولا يحصل فيه قمط فواد ولا سأم والله أعلم.

وبناه الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أن حرر حد خالد بن الوليد فرأوا حده خارجًا عن قنطر باب البريد بالمساحة بأربع أذرع، وكان الحصة الشرقية منه بأيدى الكفار، ودفع لهم مالاً جزيلاً، فلم يمكن فحرزه، فحزر، فدخل الجامع كله فى حد خالد ابن الوليد ﷺ ،وطالبهم ببعض كنائس، ثم هدمه ما سوى الجداران الأربعة وزخرفه .

قال البكرى فى تاريخه: بُويع له للنصف من شهر شوال سنة ست وثمانين من الهجرة، وهو ابن تسع وثلاثين، وتوفى يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخر لسنة ست وتسعين، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، ولقب بالمستقيم بالله، وتم أمره بالخلافة، وهو الذى بنى الجامع، وأنفق عليه أموالاً عظيمة.

فقال: كان الذى أنفقه عليه أربعمائة صندوق فى كل صندوق أربعة عشر ألف دينار .

وقال البكرى: وسك الدنانير أزيد من دنانير السوق، وهدم رحمه الله الدور التى كانت بجوار النبى ﷺ، وأدخلها فى المسجد حتّى صار طوله مائتى ذراع وعرضه كذلك، وفى أيامه فُتحت جزيرة الأندلس وبلاد الترك كلها وأكثر بلاد الهند.

قال البكرى: وكان جبارًا متعاظمًا ؛ إلاّ أنه كـان من محاسنه الكرم والنهى عن محارم الله تعالى، وروى عنه أنه قال: لولا أن الله تعالى ذكر آل لـوط فـى القرآن ماظننت أن أحدًا يفعل هذا، ثم مات فى أثناء العمارة، فبقيت على يد أخيه سليمان بن عبد الملك بن مروان، بويع له فى جمادى الآخر سنة ستّ وتسعين، وهو ابن اثنتين وأربعين سنة، وتوفى لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، وعمر دارًا هائلة بقبة صفراء بدمشق بدرب محرز، فجعلها دار الخلافة لمعاوية، وكان شابًا فصيحًـا متنزهًـا، مؤثرًا العدل، محبًا للغزو، ومولده سنة تسعين، وكان مليـح الشكل، مقرون الحـاجبين، يقرب شعره إلى منكبيه .

قال محمد بن سيرين: رحم الله سليمان بن عبد الملك افتتح الخلافـة بإحيائـه الصلاة لمواقيتها، وختمها بخلافـة ابـن عمـه عمـر بـن عبـد العزيـز ﷺ، ومـن محاسنه كان رفيقا بالرعية كثيرًا جزاه الله خيرًا.

ذكر ممالكها وبلادها ومالها من ترتيب المواكب السلطانية الخليفية:

قال فى كوكب الملك: وهى تشتمل على سبع نيابات تجرى فى الترتيب قريبًـا من ترتيب المملكة المصرية فى المدن والبلاد والطريق وقلاع .

الأولى: المملكة الشامية وتقدم، وكان مواكبها موكب حلب أكبر منهـا ؛ لأنهـا جناح الملك من الجهة الشرقية ؛ إن أغلب الفتن من قبلها، ثم رفعت عليها دمشق لقوة عساكرها، وقربها من المملكة المصرية، وأنها قطب دائرة الممالك الشـامية لامتداد الممالك منها، وتسمى جلق جيرون .

قال فى الكواكب: بناها نوح عند نزوله من السفينة بعد بناء حران .

وقيل: بناها جيرون بن عاد، وقيل: جيرون وأخوه يزيد ابنا لقمان بن عاد.

وقيل: العاذر غلام إبراهيم عليه السلام وتقدم .

وهى مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية، وبها الجوامع والمساجد، والخوانق، والربط، والقواسير مالم يكن فى غيرها.

وقال: فى جانبها الغربى القلعـة، وهـى صنميـة يحـوط بهـا الخنـدق لتطويـف الماء عند الضرورة، فإذا دعت الضرورة أطيف المـاء حـول خندقهـا وسـورها، وبالميدان القصر الأبلق المبنـى بـالحجر الأسـود والأصفر بتـأليف غريـب، بنـاه الملك الظاهر بيبرس، ومثله! القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر المحروسة.

قال: وإلى جانبهما مدينة تسمى الصالحية، يسكنها كثير من الأمراء، والجند، تشرف على دمشق كلها وعلى غوطتها، ولها الأنهار السبعة المتسلطة عليها؛ منها أنهار شرقيات، والخمسة غربية.

يقال: أنفق فى جامها أربعمائه صندوق كما تقدم ؛ كل صندوق ثمانية وعشرون ألفًا وتقدم فى تاريخ العسكرى أربعة عشر ألفًا؛ فحملها على ذلك أحد عشر ألف دينار ومائتى ألف دينار.

وقيل: خراج الشام سنة.

قال: ولم تزل زاهية العين والبنان، كاملة المحاسن، إلى أن طرقها التيمورلنك فى سنة ثلاث وثمانمائة، فحرق جميع ما فى داخل السور، ونهب غالب أموالها، وأسر جماعة منها، ولم يبق بها عامرًا سوى ظاهرها.

وفى نيابتها:

الأول: وهو أن نيابة دمشق الآن هى أجلّ النيابات فى الأقطار الشامية، ومقام نائبها فى الممالك مقام الكافل بمصر، ويعبر عنه بكافل السلطنة الشريفة، وتقليده من أعظم التقاليد، ويكتب عنه أكبر الوظائف، تجهز لها الأبواب الشريفة، وللنائب من الحاشية مثل ماللسلطان غالبًا من الدوادارية والخزاندرية، وأمير مجلس، وأمير، وأمير آخوردشار الشربجات ومهاترة[1] السوق، وغيرهم من الغلمان، تشتمل على خيول خامة، ورأس طوالها بالذهب ،وبغال، وأكاديش[2]، ونجاتى وجمال تجهز للسلطنه، وأقمشة، ومماليك كذلك مما يكون قيمته عشرة ألاف دينار .

وبدمشق: نائب قلعة منفردًا عن نائبها.

قال فى الكواكب: وكان نائبها فى القديم مقدم ألف، ثم استقرطبل خاناه إلى الآن.

قلت: وفى قوانين بنى عثمان الآن لا يكون طبل خاناه، وعادة نائبها أنه لا يسلم مفاتيحها إلاّ لمن يتولاها مكانه يدًا بيد، أو مَنْ يأمر له السلطان بتسليمها

---

(١) مهاترة: جمع مهتار: لفظ فارس يلقب به كبير كل طائفة من غلمان البيوت. انظر: معجم الألفاظ التاريخية ص١٤٦ .

(٢) الإكاديش ؛ جمع إكديش : الحصان الهجين الأعجمى .انظر معجم الألفاظ التاريخية ص١٩.

منه، وللقلعة أجناد يلبسون بها لأمر طارىء، ولا يحضر دار النيابة، وبالمدينة ثمانية أمراء:

أحدهم: الأمير الكبير، وجُعِلَ ذلك علمًا عليه، وإليه الخطاب من النائب، ويشاركه فى رأى المهمات الشريفة.

قال: وغالبًا يكون مكان النائب عند غيبته انتهى.

قلت: وهذا الوجه بطل فى قانون بنى عثمان ؛ فإن النائب ينوب عنه من أراد، وهم المعبر عنهم فى دولة بنى عثمان الأيباشية، ولهم فى قانون بنى عثمان ليس الرئيس الكبير فى أيام المواكب وملاقاة الوزراء، وعليهم سفر سوى الأمير الكبير منهم، وذلك إلى الآن والله أعلم .

وبها من أمراء الطبل خاناه : واحد وعشرون أميرًا، ومن القراوت واحد وخمسون أميرًا.

ومن الخمسات: ثلاثة وعشرون أميرًا، وطائفة تسمى جند الحلقة، ولعل الآن موضعهم الزعماء، بدمشق أى: الينكجرية، ولهم رؤساء، وبها صاحب الحجاب، ومن عادته الجلوس بدار العدل، وإذا غاب النائب ولم يستنب الأمير الكبير، فيكون هو نائبًا عنه إلى أن يعود، وإذا أبرز أمر من السلطان بقبض أحد من الكبار وكان ؛ كان هو المتصدى، وبها فى القانون القديم ستة حجاب، وولايتهم من الأبواب المرتبة، وبطل ذلك فى دولة بنى عثمان، وبها استدار كمال السلطنة، وهو المستخدم على الغور وفرامى الشريف فيصرف من المتحصل ما يستحق صرفه، والباقى يرسله للخزائن السلطانية، واستقراره للشريف من الحضرة الشريفة، وبها نقيب الجيش على طريقة نقباء الجيوش بالأبواب الشريفة.

قلت: لعلهم الآن الجاويشية وبها المهمندار بالأبواب الشريفة وأمير أخور الشيزيدار، وبها شاد الدواوين، وشاد المهمات وقد بطلوا، وبها والى الشرطة، يحكم بها بموجب القصاص والجنايات .

وبها من أرباب المناصب الدينية الأربعة قضاة، وكان أمثلهم القاضى الشافعى، وفى دولة الأروام أمثلهم الحنفى، وكان استقرارهم من الأبواب المرتبة تشاريف وتفاويض.

قلت: الآن ذلك لا يكون إلا للحنفى، وترتبه من النائب، بها فروة من السمور وذلك إلى الآن .

وبها أنشأ دار العدل شافعى وحنفى، واستقرار هما للتشاريف وتوقيع من الأبواب الشريفة.

قلت: الآن لا توقيع أى: للحنفى وهو المفتى فى دار العدل، ويحضر مع المدرسين وقت الديوان دون غيره،

وبها وكيل بيت المال كذلك، وبها نقابة الأشراف وولاية صاحبها من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، وبها شيخ الشيوخ، وهى من الوظائف الجليلة كالنقابة.

قلت: وهذه لا أثر لها الآن، وبها من أرباب الوظائف الديوانية كاتم السر، تقارب كاتم سر الملك، وهو للتشريف، وله أتباع، وبهم كتاب الدست، وكتاب الدرج بالمملكة الشامية، ولايتهم من الأبواب الشريفة، وبها نظر خزائن السلاح وظيفة جليلة تتحدث على ما يشتمل من السلاح للخزائن الشريفة للقلعة بدمشق، وكان بها نظر المهمات، ونظر الخزنة، ونظر السيوف ونظرِ مراكزهم، والسريد، وقد ذكرت مصطلح هذه الوظائف فى [**حدائق الياسمين فى ذكر (قوانين الخلفاء والسلاطين**] والله تعالى أعلم .

وبها خزانة الطب وجراح باشا، وحكيم باشا وشرطه أن يكون مسلمًا، وهو إلى الآن.

المقصد الثانى: فيما هو خارج عن محازاتها من المدن، والقلاع، والقرى، والضياع، ويشتمل على بر وأربع صفقات .

أما برها: فالمراد نواحيها.

وأما صفقاتها فأربع : الساحلية، والجبلية، وهى بلاد غزة وما جاورها، ولها ناحيتان:

الأولى: الساحلية، وهى التى بساحل بحر الروم، ويشتمل على أربعة أعمال:

الأول: غزة.

الثانى: الرملة، وفيه عمل يافا.

الثالث: عمل اللُّد.

والرابع: عمل قاقون[1].

---

(١) قاقون : حصن بفلسطين قرب مدينة الرملة . انظر : معجم البلدان (٣٣٩/٤).

الناحية الثانية من الصفقة الأولى: الجبلية، وبها ثلاثة أعمال .

عمل القدس: وهو القبط، غلب على مدينة القدس، وهى ذات المسجد ((الأقصى أحد المساجد التى تُشد إليها الرحال))، وأصل التقديس التطهير، والمراد المطهر من الأدناس.

وبها المدارس، والربط، والحمامات، والأسواق والعمائر، وشرب أهلها من ماء عين سلوان.

الثانى من الصفقة الجبلية: عمل بلد الخليل عليه السلام، وأسمها بيت جبرون، وبها قبور الأنبياء؛ إبراهيم، ويعقوب، وإسحاق، ونسائهم عليهم السلام.

الثالث: عمل نابلس[1]، وهى مدينة من جند الأردن.

قاله مالك الأنصار: بها البئر التى صفرها يعقوب عليه السلام، وكانت قديمًا للسامرة، والعمل لجبل الطُور نابلس الذى يحجون إليه .

الصفقة الثانية من صفقات دمشق القبلية، ويشتمل على عشرة أعمال.

الأول: عمل بيسان.

الثانى: عمل بانياس، وبه قلعة المصبية.

الثالث: عمل المقرىء.

الرابع: عمل نوى.

الخامس: عمل أذرعات، ويقال: تدرعات.

السادس: عجلون وهى قلعة من جند الأردن مبنية على جبل عوف، تشرف على الغور محدثة فى سلطنة العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وكان بها راهب، يقال له: عجلون ؛ فسميت به، ومدينته هذه عمل الباعونة التابعة لعمل البلقاء .

قال فى الروض المعطار: سميت بالبلقاء بن سورية من بنى عبيدة من لوط عليه السلام.

---

(١) نابلس : مدينة مشهورة بفلسطين تقع بين جبلين ، وهى كثيرة المياة . انظر : معجم البلدان (٥/٢٨٨) .

الثامن[1]: عمل رخد، وكان بها قلعة عظيمة، وبها ملك عظيم، فلما خرج هولاكو على البلاد هدمها، ثم حددها الملك الظاهر بيبرس، وممن وليها العادل بعد خلعه من السلطنه.

التاسع: عمل بصرى، وبه قلعة، وكانت دار الملك ابن أيوب، وبها وجد النبى ﷺ بحيرى الراهب عند سفره إلى الشام بمتجرة لخديجة رضى الله عنها، فبشر بمبعث النبى ﷺ حين رآه، وقبر بحيرى الراهب بها مشهور.

والعاشر: عمل أذرع.

قال فى التعريف: وقد يتصل عمل بصرى بأذرعات.

الصفقة الثالثة الشمالية: وهى ساحلية وجبلية، وتشتمل على خمسة أعمال:

الأولى : بعلبك وهى مدينة عظيمة بناها نبى الله سليمان عليه السلام بن داود عليه السلام مختصرة من مدينة دمشق فى كمال محاسنها وغزارة المياه، وهى جارية فى دورها وأسواقها .

وبها مدارس، وخوانق، ومرابط، وأسواق، وحمامات، وكانت دار ملوك بنى أيوب ؛ أبو الملوك الأيوبية، وبها قلعة عظيمة البناء وبظاهرها جبل لبنان المعروف بعش الأولياء من عمل البقاع البعلبكى منسوب إلى بعلبك .

الثالث[2]: عمل البقاع العزيزى نسبة إلى العزيز بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومقر الولايه به الكرك؛ أى: كرك نوح عليه السلام.

الرابع: عمل بيروت، وهى مدينة بابل دمشق الشام على حافة البحر الرومى، وبه جبل به معدن الحديد، وبها غوطة من أشجار الصنوبر، وسعتها اثنا عشر ميلاً، وبها الموز، وزهر الفل الطيب الرائحة، ويأتى الموز منها إلى دمشق، وترابها يميل إلى الاصفرار شديد ذلك، وبها قبر الإمام الأوزاعى شرقيها – رحمه الله تعالى–، وبها حمام عظيم وهى فرصة دمشق، ولها بناء قلعة.

الخامس: عمل صيدا بساحل البحر الرومى بناها صيدا بن كنعان بن دامر ابن نوح عليه السلام. وقيل: امرأة فسميت بها، وقراها تشتمل على ألف وثمانية ضيعة قاله فى الكواكب.

---

(١) لم يذكر السابع ، هكذا فى المخطوط .

(٢) ولم يذكر الثانى ، هكذا فى المخطوط .

وقال الصفقة الرابعة الشرقية : وتشتمل على ستة أعمال .

الأولى: عمل حمص، وهى مدينة عظيمة بناها رجل من العمالقة يسمى حمص، واسمها القديم سوريا، وشرب أهلها من نهر العاصى، ولم يكن فى البلاد الشامية أصح من هواها، وبها بحيرة صافية الماء، ولا يكون بها عقارب ولاحيّات، وكان بها دار أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين بن أيوب سقى الله عهده، وبها قبر السيد خالد بن الوليد الصحابى رضى الله تعالى عنه.

ويقال: إن قبر سقراط الحكيم بها، وإن أهلها أول من ابتدع علم الحساب الجارى بين الناس الآن .

الثانى: مصياب وهى قلعة حصينة فى لحف جبل بلاد الدعوى، مقره النداوية، وكانت من أعمال طرابلس، ثم أضيفت إلى دمشق، ولا يسكن بها إلا أهلها .

الثالث: عمل قارا، وتكتب قارة بالألف والهاء متنزلها قوافل السفارة للأمن، وغالب أهلها نصارى .

الرابع: عمل المسلمية، وهى من أعظم عمل حمص، بناها أحمد الكاتب لعبد الله بن صالح بن على بن عباس ابن عبد المطلب، أسكن بها ولده، وهى كثيرة الأشجار والفواكه .

الخامس: عمل تدمر وهى من أعمال حمص، وغالب أرضها سباخ.

قال فى الروض المعطار: بنتها الجن لسليمان عليه السلام، وسميت بتدمر بنت حسان بن أرنبة، وفيها قبرها، وسكنها سليمان نبى الله عليه السلام بعدها.

قال فى أثار العباد والبلاد[1]: أبنيتها من أعجب البناء، موضوعة على أعمد الرخام، زعموا أنه ابتنتها الجن لسليمان عليه السلام.

قال النابغة الذبيانى[2]:

إلا سليمانَ قد قال إلا لهُ ... قم بالبريةِ فاحدُدْها عن القيد

وحبِّس الجنَ إنّى قد أمرتُهُمُ ... يبنونَ تدمرَ بالصُفّاح والعَمَدِ

---

(١) انظر : آثار العباد (٢١٩/١) .

(٢) النابغة الذبيانى ، وهو : زياد بن معاوية بن ضباب ، الغطفانى ، أبو إمامة ، شاعر جاهلى ، أحد الأشراف ، كان خطيًا عند النعمان بن المنذر . من آثاره : دواوين شعر . توفى سنة (١٨ق هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء (٥٥/٣) .

حكى إسماعيل بن محمد المقرى قال: كنت مع مروان بن محمد آخر ملوك بنى مروان الأموى حين هدم حائط تدمر، فأفضى الهدم إلى جرن عظيم، فكشفوا عنه صخرة ؛ فإذا بيت مجصص كأن اليد قد رفعت منه الآن، وإذا سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها عليها سبعون حلة ولها عذار مشدود بخلخالها.

قال: وكانت قدمها ذراعًا من غير الأصابع وفى بعض عذائرها صفحة ذهب فيها مكتوب ... باسمك اللَّهُمَّ، أنا تدمر بنت حسان أدخل الله الذل على مَنْ يدخل علىّ، فأمر مروان بالجرن فأعيد كما كان، ولم يأخذ شيئًا من حليها.

قال: فوالله ما مكثنا بعد ذلك أيامًا حتى أقبل عبد الله بن على العباسى، وفرق جيش ابن مروان، وأزال الملك عن بنى أمية، وبها تصاوير كثيرة.

السادس: عمل الرحيبة أول من عمرها مالك بن طوق، وكان من قواد هارون الرشيد ؛ فنسبت إليه، وخربت، واستجدها شيركوه صاحب حمص الرحيبة الجديدة التى هى الآن عامرة، وبها قلعة على تل من تراب، وهى الآن أحد الثغور الإسلامية، وبها قلعة البنامية، وبها بحيرة وطوائف .

المقصد الثالث: فى أرباب الأمور، وهى على أربعة أنواع :

الأول: النيابات وهى ثلاث طبقات .

الأولى: نيابة غزة.

قال القزوينى: مدينة طيبة بين الشام ومصر على طرف رمال مصر.

قال عليه الصلاة والسلام: «**أبشركم بالعروسين: غزة وعسقلان**».

قد افتتحهما معاوية بن أبى سفيان زمن عمر رضى الله تعالى عنه، دولة الإمام الشافعى، ولد بها سنة خمسين ومائة، وكان رحمه الله تعالى يجعل الليل أثلاثًا ؛ ثلثًا لتحصيل العلم، وثلثًا للعبادة، وثلثًا للنوم، ولها حالات .

الأولى: أن تكون نيابة؛ فيكون حكمها على الساحل والجبل، ووالياها وقضاتها، ولايتها من الأبواب الشريفة بتشاريف وتواقيع.

الحالة الثانية: أن تكون تقدمة عكا، فله الساحلية فقط.

ويقال له: مقدم العسكر بغزة المحروسة، ولايته من الأبواب أيضًا، وبها حاجبان الأول: طبل خاناه، وبها من أرباب المناصب الدينية؛ القضاة الأربعة، وبها المحتسب ووكيل بيت المال، وبها كاتب درج، ويسمى صاحب ديوان المكاتبات بغزة، وولايته من الأبواب، وربما يحتمل تشريفًا من الحضرة الشريفة.

الطبقة الثانية: نيابة القدس الشريف من الصفقة الثانية، وكانت قديمًا نيابة صغيرة، ويولاها نائب الشام، ثم استقرت طبل خاناه سنة سبع وستين وسبعمائة. قاله فى التثقيف، وكان يضاف إليها نظر المقدس، والنظر على مقام الخليل عليه السلام، ويمتد عنه بنظر الحرمين، ثم انفرد النائب عن النظارة، وكان بها ولاية القلعة من نائب الشام، وبها أربعة قضاة وولايتهم من الأبواب، وبها محتسب وولايته من نائبها، وبها نيابة، وبها نيابة جديدة من الصفقة القبلية ويولاها نائب الشام، وبها نيابات بعلبك من الصفقة الشمالية إمرة عشرة، والآن طبل خاناه، وولايتها من نائب الشام .

واعلم أن القدس: هى المدينة المشهورة محل الأنبياء، بناها نبى الله داود عليه السلام، وفرغ منها سليمان نبى الله عليه السلام بأمر من الله.

فقال: يارب أين؟

قال: حيث ترى السيف مصلتا، فرأى داود ملكا على الصخرة بيده سيوف بها هناك، وعمل سليمان عليه السلام أثارًا ؛ منها قبة، معلق بها سلسلة منالها اليمن لا المبطل حتى إنها اضمحلت، وبنى بيتًا وأحكمه ؛ فإذا دخل الورع والفاجر كان خيال الورع فى الحائط أبيض، والفاجر أسود.

ومنها نصب فى زاوية عصا أبنوس إن مر وعلم أنه من ولد الأنبياء لم تضره، وإلاّ أحرقته، ثم ضرب الدهر بها، واستولت عليها الجبابرة، فخربوها فاجتاز بها العزير عليه السلام فرآها خاوية على عروشها.

فقال: ﴿**أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**﴾[البقرة:٢٥٩].

وعمر بها ملك من ملوك الفرس، يقال له: كوشك، فعمرها، وجعل فى جبالها زرعها على أطراف الجبال وقطعها بالفئوس؛ لأن الدواب لا تعمل بها؛ لأن أرضها كلها حجر. وشرب أرضها من ماء المطر غالبًا، ودورها حجرية، لكن مياهها ردية.

وفيها ثلاث برك؛ بركة بنى إسرائيل، وبركة سليمان عليه السلام، وبركة عياض.

قال فى [أخبار بلدان الإسلام]: الإمام محمد بن أحمد البشارى المقدسى[1]: إنها متوسطة الحر والبرد، فلم يبق فيها الثلج ولا أحسن من بنائها ولا أنزه من مساجدها، قد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبل والأشياء المتضادة ؛ كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز.

قال: وإن لها عيوبًا، ما ذكر فى التوراة أنها طست من ذهب مملوء عقارب، ثم لا تُرى أقذر من حماماتها، ولا أقبح مونه، وبها خرائب يبال على ما يباع فيها، وليس لمظلوم بها ناصر، ولا آذان بها إلا بالمسجد الأقصى.

وقال عليه السلام: «**لا تُشدُّ الرحال إلاّ لثلاث ؛ المسجد الحرام، والمسجد الأقصى ومسجدى هذا**»[2] .

وهو فى طرف الشرق من المدينة منذ أمد من عمل داود، طول كل حجرة عشر أذرع، فى قبلته حجر أبيض مكتوب بالقدرة محمد رسول الله خلقه لم يكتبه أحد، وطول المسجد أكبر من عرضه، وفى وسطه الصخرة، وفيها قدم النبى ﷺ، وتحتها مغارة، ولقبة الأقصى أربعة أبواب، وفى شرقيها خارج القبة قبة أخرى على أعمدة حسنة.

قيل: إنها قبة السلسلة، وقبة المعراج، وكذلك قبة النبى ﷺ، كل ذلك على أعمدة مطبقة بالرصاص.

قيل: إن قبة الصخرة كان طولها اثنى عشر ميلاً فى السماء، وكان فى رأسها ياقوتة حمراء فى حقوها كانت تُرىَ منها البلقاء.

وبها محراب مريم عليها السلام، التى كانت تأتى فيه إلى مريم الملائكة بفاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء بالصيف، وبها محراب نبى الله زكريا عليه الصلاة والسلام .

---

(١) محمد بن أحمد البشارى، هو: ابن أبى بكر البناء المقدسى، شمس الدين، أبو عبد الله، أحد المؤرخين الرحالة، جغرافى ، من آثاره: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقليم . توفى سنة (٣٧٥هـ). انظر: الأعلام (٢٠٣/٦) ، معجم المؤلفين (٥٢/٣) .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى، كتاب الصلاة (٣٢٦) والإمام أحمد فى مسنده (٧/٣).

وأما المسجد فطوله : سبعمائة ذراع وأربع وثمانون ذراعًا، وعرضه أربعمائة وخمس وثمانون ذراعًا، وعدة ما فيه من العُمد ستمائة وأربعة وثمانون، وسقف المسجد أربعة ألف خشبة، ويُسْرَج فيه ألف وستمائة قنديل، وأربعمائة وارية، وستون قنديلاً، وكان له من الخدام مائتان وثلاثون مملوكًا أقامهم ابن مروان، ورزقهم من بيت المال، وبها عين سلوان تتبرك بها الناس، وفيها عمان ﷺ على ضعفا بيت المقدس .

قيل : إن شاربها يفيد سلو الحزن، ولذا رويت:

لو أشرب السلوان ما سليت

الصفقة الثالثة : جُمِعْنَ من المصفقة الشرقية وهى بطبل خاناه، ولايتها من الأبواب الشرقية .

قال القزوينى : هى مدينة بالشام حصينة أصَحّ بلاد الشام هواءً وتربة، كثيرة المياه والأشجار، ولا يلدغ بها عقرب ولاحية، ولو غسل ثوب بماء حمص لا يقرب لابسه عقرب حتى يغسل بماء آخر، وأهلها موصوفون بالجمال المفرط، والبلاغة، ورصد العقرب والحية مصور على باب المسجد، وهى صورة حية فى الأعلى، والأسفل صورة عقرب، وبها قبر خالد بن الوليد –رضى الله تعالى عنه.

الطبقة الرابعة : الرابعة؛ نيابة الصراة من الصفقة القبلية، وكانت لنائب الشام، وهى بطبل خاناه إلى الآن، وولايتها من الأبواب الشريفة، وبها نيابة مصياب من الصفقة الشرقية، وكانت من مضافات طرابلس ثم استقرت فى معاملة دمشق، وهى بطبلخانة، ولايته من الأبواب المتولى، الثانى الكشاف بها كاشف القبلية، ومحلة أذرعات، الثانى كاشف الرملة من الغربية، وكان مولى مِنْ قَبِلْ نائب الشام .

النوع الثالث : الولايات؛ وهى ثلاث طبقات :

الأولى : نيابة نابلس من الصفقة الغربية، وأمراؤها أمراء عشرين، وهى من الأبواب، وطبلخانة فى هذه الآن .

الثانية : ولاية بيروت من الصفقة الشمالية، وولايتها قديمًا من قبل نائب الشام بأمر صغير، والآن من قبل نائب صيدا وقاضيها من الروم .

الثالثة : صيدا، وكان نائبها من قبل نائب دمشق الشام، وهى من الصفقة الشمالية، والآن من قبل الروم وقاضيها كذلك، وكانت لهذه الطبقة ولاية الرملة من قبل الشام، وولاية قاقون وولاية الخليل عليه السلام، مضافة إلى نيابة القدس، وكانت القدس من قبل، ثم استقرت طبلخانة سنة سبع وستين وسبعمائة، وكانت امرة غزة، وولاية القرى منها، وكانت مضافة إليها، ثم أفردت عنها وولاية حسبان والصلت منها، وولاية البقاع البعلبكى والعزيزى من الشمالية وهما لمتول واحد، وولاية قارة وهى من العقبة الشمالية، وولاية تدمر منها.

وهذه البلاد جميع ولاياتهم من الشام، خلا قاقون والصلت؛ فإنهما من الأبواب.

قلت : بل الآن من نائب الشام، وولاية تلية الصبية منها، وهى الآن طبلخانة.

قلت : والآن من قبل الشام ولا وكيل لها، وهى الآن طبلخانة بصفد، وولايتها من الأبواب الشريفة مهمة هذا الكتف، وجميع الولايات قد تنتقل فى المراتب عما هى عليه بزيادة ونقص .

النوع الرابع : أمر العربان الداخلين فى نطاق أعمال الشام، وهم سبع قبائل؛ آل ربيعة من طىء من القحطانية، وكان لربيعة أربعة أولاد، وهم : فضل، ومُرا، وثابت، وذو عقل، وقيل : خامس يسمى بدرًا .

قال فى مسالك الأبصار : ولم تزل عند الملوك له المكانة العلية .

والإمرة فى ثلاثة بطون :

البطن الأول : آل فضل رأس الكل، وهم شعب كثيرة، وأسعد بيت منهم آل عيسى؛ يعنى محمد بن الفضل ،وأولاد عيسى لهم ملوك فما بعد أو قرب، ومنازلهم من حمص وإلى قلعة جعبر، وإلى الرحبية أخذنا على شفة الفرات، وأطراف الفرات إلى يسار البصرة، ولهم مياه كثيرة، ومنازل معدودة، ولم يصرح لهم بإمرة العربان إلا زمن العادل إلى مكرات أيوب، وأن أمر آل فضل لبس فوق جميع العربان.

وتشريفة أطلسين ومركوبه من الإسطبلات الشريفة؛ فرس خاص بسرج من ذهب أسوة النواب الكبار، ويقيد راكبه الكاتبان من الأبواب الشريفة إلا أنه لا يكتب تقليدًا ولا مرسومًا شريفًا .

البطن الثانى : آل مُر بن ربيعة ومنازلهم حوران، قال فى المسالك : وآل مُرا أبطال مياجيد، ورجال صناديد، والإمرة فيهم قريبًا مما تقدم .

قال الشيخ أبو البقاء محمود الحلبى رحمه الله تعالى قال : كنت فى نوبة حمص فى مرافقة البقاء جالسًا على سطح باب الإسطبل السلطانى، إذ أقبل آل مُرا منها أربعة ألف فارس، شاكلين فى السلاح على الخيل الموسمة والجياد المطهمة[1]، وعليهم الكر عقيديات الحمر الأطلس المعدنى، والديباج الرومى، وعلى رؤسهم البيض مقلدين بالسيوف، وبأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب، ويرقصون بتراقص المهادى، وبأيديهم الجنائب التى لها عيون الملوك نواظر، ووراءهم القطائف، والحمول، ومنهم مغنية تُعرف بالحضرمية، طائرة السمعة، سافرة من الهودج، وهى تغنى، وحفظت منها .

قول الشاعر :

وكنّا حسبنا كلَّ بيضاءَ شحمةٍ ... لبالبِ لاقتنا حذامًا وهمّرَا

ولما لقينا مضية تغلبيةً ... يقودُ وزمردُ للمنيةِ ضمَّرَا

فلما فرغنا التبر بالتبغ بعضَهُ ... ببعضِ أبتْ عقداته أن تكسّرَا

سقيناهُم كأسًا سقونَا بمثلهِ ... ولكنَّهم كانوا على الموتِ أجبَرَا

قال : وكان الأمر كذلك، فإن السكرة كانت أولاً عفا المسلمين على المسار، فسبحان منطق الألسن، ومصرف الأقدار، نقله الجنانى فى تاريخه .

البطن الثالث : آل على بن حذيفة بن فضل المتقدم، وديارهم مرج دمشق، وغوطتها بين إخوتهم آل فضل، وهى عمهم آل مُرا ذات أحوال جمة، ومكانة فى الدولة العلية والإمرة لم تزل فى زمن جدهم محمد بن أبى بكر من أيام

---

(١) المطهمة : السمينة القوية . انظر : القاموس المحيط، مادة [طهم] .

المتصور، ومنهم بنو حزم من طيئ، ومنازلهم بلاد غزة إلى بلاد الخليل، ومنهم تغلبية من طيئ، وأراضيهم جهات غزة .

ومن القبائل الطائفة : بنو فهدى .

قال فى مسالك الأبصار: وهم من طربق، وطربق من حذام، ومنازلهم البلقاء من قديد إلى حيان، والصلت .

ومن القبائل: زبيد وهم فرق شتى، منهم فرقة بالغوطة، وفرقة بمصر .

قال : وزبيد أقسام؛ زبيد المرج، وزبيد حوران، وزبيد الأجلاق؛ فزبيد المرج الغوطة، وزبيد حوران صرغد، وزبيد الأجلاق ديارهم بالقرب من الرمتة وبحوران آل فضل، وكان لهم أمير فبطل، ومن القبائل؛ بنو خالد : وهم عرب حمص .

قال الحمدانى : وهم يدعون النسب لخالد بن الوليد ﷺ .

قال فى آثار العباد[1] : حوران قرية من قرى دمشق .

قيل : إنها قرية أصحاب الأخدود، بها نسبة لقاضى نجران ينذر لها المسلمون والنصارى، وليست نجران التى من مخاليف اليمن، فبناها ابن سبأ نجران بن يشخب؛ قال صلى الله عليه وسلم : «**القرى المحفوظة أربع : مكة والمدينة وإيلياء ونجران، وما من ليلة إلا وينزل على نجران سبعون ألف ملك يسلمون على أصحاب الأخدود**»، وفى كلامه نظر .

ينسب إليها عبد الله بن العامر شهيد نجران، وكانوا أهل ترك، وله قصة .

قيل : إنه أخرج فى زمن عمر ﷺ، وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل، وأجمع أهل العلم على انقراض نسب خالد ولا أمر لهم، ومن القبائل نجرنة، وقد عدهم فى التعريف من جملة عرب الشام من العد ثمانين .

قال فى المعبر : ولم تزل لهم صولة، والغالب عليهم عدم الطاعة، ومقرهم أرض الشام .

---

(١) انظر : آثار العباد، للقزوينى ص١٨٥ .